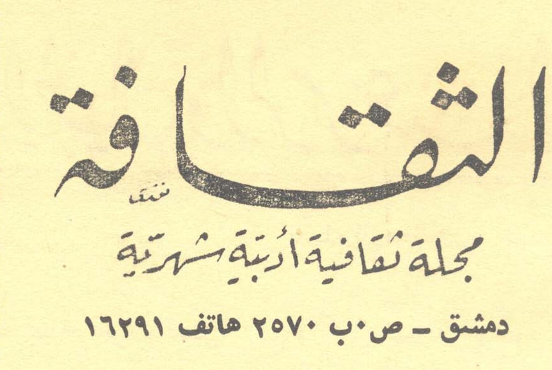
صاحبها ورئيس تحريرها

مدحة عكاش

MADHAT AKKACHE



دمشق - ص٠ب ٢٥٧٠ هاتف ١٦٢٩١

العدد الثاني

تموز

١٩٦٢

السنة الخامسة

أجل ! نحن مغرضون

في احدى جلسات لجنة الشعر في المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية اتهمنا السيد مقرر اللجنة بأنا مغرضون في كل ما قلناه في عدد شهر مايس المنصرم ، يوم سألنا اللجنة الموقرة عما فعلت ، ويوم كشفنا النقاب عن تبادل المنافع والعواطف بين أعضائها ، - نستغفر الله - بل بين بعض أعضائها ، ويوم تحدثنا عن المبالغ التي منحت لهؤلاء الاعضاء ٠

ولينعم بالا السيد **مقرر لجنة الشعر ، وصاحب أرض السحر ، والمقدم لكتاب الأزاهير الحمر** ٠ لينعم بالا فنحن مغرضون ، وغرضنا الواضح الصريح أن نبرهن للناس أن سوريا العربية التي أنجبت أكابر الشعراء والادباء في العالم العربي لم تعد ترضى تأليه المحنطين ممن اعتادوا تسمية أنفسهم بأفخم الألقاب ٠ وغرضنا الصريح أن نبرهن للسادة أعضاء لجنة الشعر - وقد انشئت للرعاية - أن هناك شعراء هم أهل للرعاية ٠

أجل ! نحن مغرضون أيضا ، وجل همنا أن نكشف للناس ما قدمته هذه اللجنة الموقرة خلال أربع سنوات ، وأن نقارن بين هذا الانتاج المريع - ان كان هناك انتاج - وبين ما أنفقته من أموال هذه الامة ٠

ولينعم السيد مقرر لجنة الشعر بالا ، فان السيد وزير الثقافة والارشاد الأسبق الدكتور العجيلي لم يجد في حديثنا التجني والاغراض فعمد أول ما عمد الى تصفية المجلس ، ورأى أن تقتصر لجانه على ثلاث وأعضاؤه على ثلاثين ٠

ولابد لنا الآن من أن نتساءل عن رأي السيد وزير الثقافة الدكتور عمر شخاشيرو هل يحقق فكرة الدكتور العجيلي ، أم انه سيبقي **كل قديم على قدمه ؟**

مدحة عكاش

الانسان والخيال والرمز عند ابن عربي

بقلم الدكتور : عبد الكريم اليافي

يورد ابن عربي في ختام كتابه عنقاء مغرب لغزا لا يذكر حله وهو :

عجبت لموجود حوى كل صورة
من الملأ العلوي والجن والبشر
ومن عالم ادنى ومن عالم علا
ومن حيوان كان او نبت او حجر
وليست سواه لا ولا هي عينه
وفي أي شيء شاء من صورة ظهر
ويبدو الى الابصار من حيث ذاته
ويخفى عن الألباب ذاك ويستتر
فتجهله الالباب من حكم فكرها
وتظهره الاوهام للسمع والبصر
فمن هو خبرني الذي قد ذكرته
بما قد وصفناه وترمى به الفكر
فها هو مخفي وليس بغائب
وها هو منظور ويخفى عن النظر
فياليت شعري هل سمعتم بمثله
الا فاخبروني ان هذا هو العبر
وما يدري ما جئنا به غير واحد
هو الله لا تدري به سائر الفطر
وما مثله الا شخيص وانني
عجبت له من كامل وهو مختصر

ولكن المتمرن على عبارات الشيخ وأفكاره وكتبه سرعان ما يدرك ان هذا الذي الغز فيه انما هو الخيال . وقد عمد الى التعبير عنه على طريق الرمز كشأنه في كثير من شعره ونثره ثم ان هذا الشخيص الكامل المختصر الذي يعجب له انما هو الانسان فهو مختصر الكون واكمل نسخه للوجود . هذه الابيات التي قدمنا هي العناصر الثلاثة المترافقة الذي نعالجها بعض الشيء في مجموعة افكار الفيلسوف الصوفي العظيم .

لقد جمع هذا المفكر علوم عصره . وجاب متنقلا وهو شاب أجواز البلاد العربية الاسلامية الواسعة ، ونفذ بذكائه الثاقب الى اعماق الكون وتفهم ما على الارض من أسرار الكائنات وراعته على وجه الخصوص عظمة الانسان الروحية وسما بطامح فكره ومعراج قلبه الى عالم السموات ورحاب الغيب فاخترق الاستار وطاف بخياله مع الكواكب والاقمار وجال في كل ميدان جولان الانتصار .

ولم يدع أفقا فكريا الا ارتفع اليه ولا قمة روحية الا بلغ اليها حتى دعاه احد شراحه « بحر المعارف الالهية وترجمان العلوم الربانية الشيخ الاكبر والقطب الافخر » .

ولد سنة ٥٦٠ هجرية او ١١٦٥ ميلادية في مدينة مرسية على الساحل الشرقي للاندلس ثم انتقل الى اشبيلية وكانت اذ ذاك من عواصم الارض الفكرية فحصل فيها علوم عصره وطاف في قرطبة حيث لقي فيها ابن رشد وفي غرناطة والمرية وكانت كلها مدنا تتلألأ على الارض تلألؤ بروج النجوم في السماء . ولم يلبث ان عرف طريقه الذي نبغ وفاق المتقدمين والمتأخرين فيه وهو طريق الكشف والفتح والالهام . وكما تعود الشمس الى المشرق حين تفضي الى المغرب بعد ان تملأ الكون نورا كذلك أراد شيخنا الشاب أن يعود من حيث أتت شمس الثقافة العربية الاسلامية بعد اذ أنارت ظلمات المغرب وملأته حضارة وتقدما فطاف في مراكش وتونس ومصر والحجاز وبغداد وبلاد الروم ذهابا وجيئة ثم اختار درة

المشرق دمشق له دارا فأقام في ربوعها حتى وافاه اجله سنة ٦٣٨ هجرية او ١١٤٠ ميلادية .

وكانت الرحلات من اساليب الحياة المصطفاة لدى المفكرين في الحضارة العربية . فلا يكتفون بالقراءة وسعة الاطلاع والتأليف ، بل يضيفون الى ذلك سبل التعرف لجوانب تلك الحضارة المترامية الاطراف والاتصال بذرا الفكر ومحاورة العلماء في كل ميدان . وفي ذلك كله خروج للفكر من نطاقه الاقليمي واطلاق له في ميادين وجواء واسعة لا تكاد اذا تأملتها ان تتبين لها حدودا اذ ليس لها حدود . وربما كان ذلك احدى خصائص الفكر العربي الاسلامي .

بيد أن آثاره العلمية وآفاق تفكيره تجاوزت آثار خطاه وآفاق تجواله تجاوزا كبيرا . ألف كتبا ورسائل كثيرة وان كان بعض الرسائل مشكوكا في صحة نسبتها اليه ، وترك آثارا في مجالات متعددة . فلقد أثر في نهضة أوربة الدينية وفي مفكريها اللاهوتيين وأثر في خيال شاعر ايطاليا الكبير دانتي وقد اصبح امرا مفروغا منه منذ بحوث المستشرق آسين بلاسيوس أثر قصة المعراج التي كتبها والتي ترجمت الى اللاتينية في الشاعر الايطالي وكوميدياه الالهية . أما التصوف الاسلامي فانه يطبعه بطابعه العميق منذ ذلك الحين سواء كان ذلك في البلاد العربية او في البلاد الاسلامية على الاطلاق . وهكذا يتجاوز تأثيره اللغة العربية الى اللغة الفارسية مثلا . فنجد عدا المفكرين الصوفية الفرس أن اكبر شعرائهم قد قبسوا من ناره وامتاحوا الهامهم من ينبوعه .

فقد كان أبو حامد أوحد الدين الكرماني من تلاميذ الشيخ وتظهر آراء استاذه في اشعاره . وربى ابن عربي صدر الدين القونوي وعلمه وثقفه فكان من أكبر تلامذته . وكان صدر الدين هذا استاذا لقطب الدين الشيرازي أحد شراح فلسفة السهروردي الاشراقية واستاذا لفخر الدين العراقي أحد كبار شعراء الفرس وكتابه الشعري « لمعات » مستمد من احد دروس استاذه صدر الدين القونوي حين كان يشرح آراء ابن عربي . وحظي الكتاب بعدة شروح فارسية كانت احد الطرق التي دخلت منها آراء ابن عربي فارس والهند . منها ما كتبه الشيخ عبد الرحمن الجامي ودعاه « اشعة اللمعات » وكذلك كان صدر الدين صديقا حميما لمولانا الشيخ جلال الدين الرومي اكبر شعراء الفرس وهو يعتبر في طليعة شعراء العالم قاطبة وكانت هذه الصداقة ذات أثر كبير في شعر مولانا جلال الدين مؤلف المثنوي وهو أعظم ديوان شعر في الفارسية وقد خرج جلال الدين من قونية قاصدا الى دمشق فاقام فيها عدة سنوات حين كان ابن عربي يقضي في ذلك العهد السنين الاخيرة من حياته واتصل مولانا بالشيوخ الذين كانوا اذ ذاك بدمشق ومن بينهم ابن عربي وصدر الدين القونوي وأوحد الدين الكرماني . وبعد وفاة ابن عربي ارتحل صدر الدين الى قونية . ثم توفي هو وجلال الدين الرومي في سنة واحدة .

وكل فلسفة كبيرة تحيط بالعالم وتتفهم اسراره فلا بد أن يكون لها اصول تستند اليها وسبل تسلكها ومناهج تعتمدها زيادة على مضمونها وعلى العناصر التي يتألف منها هذا المضمون . وعلى الباحث ان يجلو أصول كل فلسفة لكي تتحصل الفائدة منها ويتيسر الاطلاع عليها ، ولا سيما فلسفة ابن عربي الواسعة الآفاق المشتبكة العناصر التي لا تكاد تترك شيئا دون ان تتأمله وتضعه في موضعه المناسب من الكون ومن الفكر . ولاتساعها واشتباكها لم يكن بد من أن تضيق بها بعض الافهام والعقول أو تجدها قد ابتعدت قليلا او كثيرا عن صفاء العقيدة ومعالم الشريعة . فلا عجب أن لقي الشيخ الاكبر مناوأة كبيرة ومدافعة شديدة في حياته وبعد موته من قبل طائفة جليلة من العلماء المحققين المدققين ولا سيما السلفية منهم كم القي اعجابا واحتراما لا حد لهما من قبل آخرين .

ان أصول فلسفة ابن عربي قد بعد العهد بيننا وبينها في العصر الحاضر . ولذلك نجد فيها كثيرا من الالفاظ والمصطلحات قد تبدلت حدود دلالاتها وقوة

ايحائها . كانت تلك الفلسفة سبكا جديدا لكثير من العناصر الفكرية الرائجة عند الفلاسفة الصوفية اذ ذاك وابتكارا اصيلا لطريقة النظر في الكون والمعتقدات والانسان والوجود . ثم ان ابن عربي يصدر عن ثقافة واسعة متصلة بالتعابير والمصطلحات الدينية ايا كان ميدانها ومجالها . وهي لا تكاد تحصر فهو يستعملها في التعبير عن آرائه ، ولذلك يوجه دلالاتها ومعانيها توجيها ينسجم مع أصول تفكيره ونظرته الاصيلة الى العالم والوجود والديانات وكأنها عنده رموز الى أفكاره واعتباراته التي يتغنن في عرضها وابراز ما يشاء من مضمونها .

ومع اطلاعه الواسع المتبحر على التراث الاسلامي وغيره دفعته نزاهته الفكرية الى تفهم حقائق الآراء والمذاهب والنحل من أفواه أصحابها كلما أتيح له الاتصال بهم . يقول عن نفسه : « ما أعرف منزلا ولا نحلة ولا ملة الا رأيت قائلا بها باعترافه من نفسه فما أحكي مذهبا ولا نحلة الا عن اهلها والقائلين بها »

بل ان هذا المفكر لم يقتصر على التبحر وتعرف الآراء والمذاهب من أهليها وانما كان دائم التأمل في الموجودات وأسرار الكون . أليس هذا الكون على اختلاف ظواهره ومجاليه دائب الحركة دائم التبدل ينبض بالحياة وألغازها ويضج بالايقاع الالهي والقول الرباني ؟

بيد أن اهم أصول تفكير ابن عربي اعتماده على الخيال . وليس معنى الخيال عنده ما يراد به الآن في علم النفس من انشاء صور للمحسوس في الفكر تطابقه او تبتعد عنه ولا ما يراد به أحيانا من انشاء صور وهمية لا ضابط لها ولا رابطة بينها ولا صحة فيها وانما يعطي ابن عربي الخيال معنى قويا وقيمة كبيرة من المعرفة لم يعطه اياه من قبله ولا من بعده فيلسوف آخر .

وتشف هذه المكانة الكبيرة التي يبوئها محيي الدين الخيال عن طبيعة واستعداد ومزاج جميعها ذات رؤى ومشاهدات وتخيل بعيد . وفي حياته الخاصة حوادث تشير الى ذلك . يذكر في نهاية الفتوحات كيف مرض وهو صبي مرضا وبيلا حتى غشي عليه وقرأ له أبوه سورة يس كما اعتاد الناس أن يقرؤوها عند رؤوس المحتضرين . ولاترك له المجال يقص هو نفسه أثر الحمى في نفسه وأثر سماعه تلاوة السورة فهو يقول : « فانه اتفق لي فيها (في سورة يس) صورة عجيبة وهي أني مرضت فغشي علي في مرضي بحيث اني كنت معدودا في الموتى فرأيت قوما كريهي المنظر يريدون أذيتي ورأيت شخصا جميلا طيب الرائحة شديدا يدافعهم عني حتى قهرهم فقلت له : من أنت فقال انا سورة يس أدفع عنك فافقت من غشيتي تلك واذا بأبي رحمه الله عند رأسي يبكي وهو يقرأ سورة يس وقد ختمها فاخبرته بما شهدته » .

ولما غادر الاندلس وبدأ تطوافه حضر في مراكش جنازة الفيلسوف الكبير ابن رشد الذي سبق أن تعرف اليه في قرطبة . فهو يحكم عند ذلك على فلسفته حكما رمزيا عابرا أشد عليها من المحاجة والمناقشة . يتحدث ابن عربي عن ابن رشد في الفتوحات وعن لقائه اياه في الواقع وفي الخيال ثم يقول : « فما اجتمعت به حتى درج (اي مات) وذلك سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمدينة مراكش ونقل الى قرطبة وبها قبره ولما جعل التابوت الذي فيه جسده على الدابة جعلت تواليفه تعادله من الجانب الآخر وأنا واقف ومعي الفقيه الاديب ابو الحسين محمد بن جبير كاتب السيد أبي سعيد وصاحبي ابو الحكم عمرو بن السراج الناسخ فالتفت ابو الحكم الينا وقال : الا تنظرون الى من يعادل الامام في مركوبه ؟ هذا الامام وهذه اعماله يعني تواليفه فقال له ابن جبير : يا ولدي نعم ما نظرت لافض فوك فقيدتها عندي موعظة وتذكرة رحم الله جميعهم . وما بقي من تلك الجماعة غيري . وقلنا في ذلك :

هذا الامام وهذه أعماله
يا ليت شعري هل أتت آماله

ففي القصة يطيح المؤلف بكتب الفيلسوف الكبير اذ يراها على لسان صاحبه الناسخ تعادل جثته الميتة وهي

جميعا تعود الى قرطبة حيث خرجت منها ويتعجب اذ لم تتحقق آمال ابن رشد التي بناها على تآليفه .

ان البحث عن المعرفة غاية كل مفكر واذا لم يتمكن ابن رشد أن يصل اليها في رأي ابن عربي على طريق المنطق والاستدلال والبرهان فان ابن عربي يظفر بها ويصل اليها على طريق الكشف والالهام مع ان الوصول صعب لا بد له من همة كبيرة تستطيع ان تنهض له وترقى اليه . وعندها سيشرق في نفس العارف فجر لا ينتهي الى غروب .

ان هذا الكشف ثمرة الصبر والجهد والطلب والتطلع والتأمل والتفكير وهي كلها ملأت حياة ابن عربي . وفي هذا الطريق الحافل بالمصاعب يقص علينا الشيخ رؤى ومشاهدات جميلة جدا رآها في يقظته فجرت في نفسه ينابيع الالهام والكشف . ولعل أجملها واكملها وأبدعها هذه القصة الطريفة في مستهل فتوحاته المكية يورد فيها تلك النجوى البارعة الفاتنة المحيرة بينه وبين فتى لاح له سابقا وربما كان هذا الفتى يمثل كنه ذاته العلوي فيقول : « اني لما وصلت الى مكة البركات ومعدن السكنات الروحانية والحركات وكان من شأني فيه ما كان طفت بيته العتيق في بعض الاحيان . فبينا انا أطوف مسبحا وممجدا ومكبرا ومهللا تاره ألثم وأستلم وتارة للملتزم ألتزم اذ لقيت وأنا عند الحجر الأسود باهت الفتى الفائت المتكلم الصامت الذي ليس بحي ولا مائت » ويمضي المؤلف في سرد هذا اللقاء وما اشتمل عليه من نجوى ومعرفة ساميتين أدتا الى كتابة الفتوحات .

ان ذلك اللقاء وتلك النجوى وذلك الحوار أبدع ما عرفه تاريخ التصوف في الشرق والغرب على الاطلاق والقصة طويلة جدا ليس هنا مجال ايرادها .

ولقد غدت الفلسفة والتصوف في عصر ابن عربي صنوين وطريقين متلازمين ، وبذلك أغنى احدهما الآخر وزاد فيه وعمق غوره واكثر خصبه وثمراته . فكل فلسفة كانت تعد باطلة ان لم تنته الى غاية فكرية ونظرة شاملة في الوجود . وكل تصوف كان يعتبر لغوا وقصورا اذا لم يستند الى دعائم مكينة من المعارف العلمية والفلسفية . فالنظر والمعرفة يعرجان على براق التأمل والتجربة الذاتية والعمل الصالح ليصبحا كشفا والهاما ، والالهام الذي يتنزل به الروح على القلب يصقل جميع أنواع النظر ويعيد بناءها ويحبوها كمال الاداء .

فاذا اجتمعت الفلسفة والتصوف على اكمل مثال لدى عبقري مثل ابن عربي فلا عجب ان نراه يجد في كل أمر مغزى ولكل كائن فحوى ووراء كل ظاهر باطنا وفي كل موجود رمزا . يقول مؤلف مواقع النجوم : « فما في الوجود شيء الا لحكمة علمها من علمها وجهلها من جهلها ، فالوجود كله ما انتظم منه شيء لشيء ولا انضاف منه شيء لشيء الا لمناسبة ظاهرة او باطنة اذا طلبها الحكيم المراقب وجدها . »

وكل ما في الوجود مجال للتأمل والفهم والاكتناه . يؤكد الشيخ « على انه ليس في الوجود باطل أصلا وانما الوجود حق كله والباطل اشارة الى العدم اذا حققته »

فالمريد لا يكتفي بالقرآن الكريم خاصة بل يتأمل الوجود كله فهو قرآنه العام ان جاز هذا التشبيه يقول المؤلف في مواقع النجوم ايضا : « ولا تظن يا بني ان تلاوة الحق عليك وعلى أبناء جنسك من هذا القرآن العزيز خاصة . ليس هذا حظ الصوفي بل الوجود بأسره كتاب مسطور في رق منشور تلاه عليك سبحانه وتعالى لتعقل عنه ان كنت عالما قال الله تعالى وما يعقلها الا العالمون ولا يحجب عن ملاحظة المختصر الشريف من هذا المسطور الذي هو عبارة عنك فان الحق تعالى تارة يتلو عليك من هذا الكتاب الكبير الخارج وتارة يتلو عليك من نفسك فاستمع وتأهب لخطاب مولاك اليك في اي مقام كنت وتحفظ من الوقر والصمم فالصمم آفة تمنعك من ادراك تلاوته عليك من الكتاب الكبير المعبر عنه بالقرآن والوقر آفة تمنعك من ادراك تلاوته عليك من نفسك المختصرة وهو الكتاب المعبر عنه بالفرقان اذ الانسان محل الجمع لما تفرق في العالم الكبير . » وتستبين من هذا النص مكانة الانسان في الوجود فهو مختصره الشريف

وخلاصة البديعة او هو العالم الأصغر الذي يحتوي العالم الاكبر •

ولا نظن ثمة مفكرا في الشرق ولا في الغرب رفع الانسان وقدس فكره وروحانيته مثل ابن عربي • فالانسان خليفة الله خلق اذ خلق آدم على صورة الله • يقول في الفتوحات : « اكمل نشأة ظهرت في الموجودات الانسان عند الجميع لأن الانسان الكامل وجد على الصورة لا الانسان الحيوان والصورة لها الكمال • » ثم ان هذا الكمال العالي الذي يجده فيلسوفنا في الانسان انما يعينه في هذه الحياة التي نحياها فيقول في موضع آخر من الفتوحات : « واعلم ان اكمل نشأة الانسان انما هي في الدنيا » • والانسان بهذا الاعتبار مفتاح كل شيء • وهو على رغم انه محدث يبدو متصلا بالازل وبالابد • جاء في كتاب التراجم وهو من رسائله : « الانسان مفتاح كون الوجود وكون العبادات ، به ظهر الأزل وهو يفتح باب الابد • »

ولهذا كان كل انسان قد ألزم طائره في عنقه • فهو الذي يصنع صورة نفسه وكان مصيره بين يديه ورهين تصرفه ونتيجة عمله • يقول ابن عربي في الرسالة نفسها : « صورة الانسان بعد الموت تتنوع بتنوع أحواله في الدنيا فكن على أحسن الحالات تكن على أحسن الصور • » وليس بعد هذا مسؤولية عن النفس اكبر من هذه المسؤولية •

وهو يتناول فكرة خلافة الانسان في الأرض في مواضع شتى من كتبه • يقول في « التدبيرات الالهية في اصلاح المملكة الانسانية » : « فلما أوجد هذا الخليفة على حسب ما أوجده قال له ، أنت المرآة ، وبك ينظر الي الموجودات ، وفيك ظهرت الاسماء والصفات ، أنت الدليل علي ، وجهتك خليفة في عالمك تظهر فيهم بما أعطيتك ، تمدهم بأنواري ، وتغذيهم بأسراري ، وأنت المطالب بجميع ما يطرأ في الملك (١) » وهي مسؤولية ضخمة يحملها الانسان ، تطالبه بحسن التصرف ، وتقتضيه احلال الأمن والعدالة والسلام في العالم •

ويعمد في كتابه « تنزلات الاملاك » الى بيان حقيقة فهمه لخلافة الانسان هذه بعبارته الروائية الرمزية الفنية المسجوعة : « قلت له : يا أبت اني أريد أن تخبرني بما علمت من الاسماء وهل كانت لك خلافة في السماء ؟ فقال لي : يابني ان القدم الواحدة مخصوصة بالسماء والخلافة ذات قدمين فلا يصح فيها وجود الخلفاء • وأما ما سألت عنه من معالم الاسماء فان الله عرض علي الحقائق قبل تأليفها وعرفني بأسمائها وأسماء من يتألف منها وأعلمني بكيفية تركيبها وتصريفها ، ثم عرض على الملائكة تلك الحقائق وأخفى عنهم ما أشهدني من الرقائق ، لما تقدم منهم في حقي من التجريح كما رأيته في النبأ الصحيح فقال : (أنبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين (٢)) وأشار اليهم لكونهم حاضرين ولو أراد الاسماء خاصة لقال عرضها ، وفي قوله : « عرضهم(٣) » محجة صادقة واضحة يعرفها من فرضها فعرفت الملائكة أسماء الحقائق في حال افتراقها ، حين اختصصت أنا بمعرفة أسماء تركيبات حقائقها فقالوا : « سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم • قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم (٤) » • فألفت الحقائق بطريق ما وقلت : هذا فرس ، وألفتها بطريق آخر ، وقلت : هذا انسان ، فأنبأتهم بأسمائهم ، فظهرت حجة الله على خلقه ، وقام لهم برهان حقه ، فبمثل هذه الأسماء اختصصت ، وهي التي على الملائكة نصصت ، والا فليس في الاسماء عند وجود الأعيان معرفة غامضة عند الارواح ، لأنها على مجرد الاصطلاح ، ولهذا اختلفت عوالم العبارات عنها عند شهودها ولم تختلف المعاني التي بها قوام وجودها ، ولهذا قالت الاعراب : هذا فرس ، وهو جواد ، وهو طرف ، وقالت الافرنج فيه : كباله ، وقالت الروم ألوغ ، وقالت الترك : أت ، وقالت الأرمن فيه : تسي ، وقالت العجم فيه : أسب •

---

(١) مخطوطة بالمكتبة الظاهرية رقم ١٥٣٧ وفي الأصل وتغذبهم •

(٢) و (٣) البقرة ٢ : ٣١ •

(٤) البقرة ٢ : ٣٢ ، ٣٣

فالنفس تعقل معانيها ، وان اختلفت أسامبها في مبانيها •
فقلت له : هذه الاسماء الكيانية ، فهل اختصصت أيضا بالاسماء الالهية ؟ فقال : عليها فطرت الصورة الانسانية ، انظرها فهي مصرفتك ، وتحققها فهي معرفتك ، وبمعرفتها تفاضلت اشخاص هذا الجنس ، وبمشاهدتها تقدس العقل وزكت النفس ، فقلت له : كذلك وجدتها ، ولهذا عبدتها وما عبدتها (٥) • »

فمن ما هية الانسان أن يدرك حقائق الأشياء ويتصرف بها • وهذا التصرف له صفة علوية لانه تحقيق للأسماء الالهية • وأحب هنا أن أشير الى مسؤولية الانسان في تجميل الكون أيضا في رأي ابن عربي • فقد جاء في الفتوحات : « ومن هذه الحضرة (حضرة الجمال الذاتي) تنتقل صورة تجليه فيها الى المشاهد ، فينصبغ بها انتقال فيض كظهور نور الشمس في الاماكن ويسمى ذلك النور شمسا وان لم يكن مستديرا ولا في فلك ، ثم يفيض الانسان من تلك الصورة التي ظهر فيها عن الفيض الالهي على جميع ملكه ، في رده الى قصره فينصبغ ملكه كله بصورة جمال لم يكن فلا يفقد الانسان في ملكه صورة ما شاهدها من ربه في رؤيته(٦) • »

وكم نحتاج الى ان نتعرف من جديد « انسانية » الانسان وأن ننوه بعظمة قلبه وفكره ونصون كرامة شخصيته في عصر تطغى سيطرة الصناعة والمادة والحكومات عليه فتجعله كالاداة أو الآلة الملحقة في جهازها الاداري او الاجتماعي وأن نعيد اليه عن طريق فهمنا لابن عربي لمحات متألقة عالية من تلك الانسانية التي كاد أن ينسلخ منها ويتخلى عنها •

وقد جعل المؤلف غايته في تآليفه أن يدل على عظمة الانسان الفكرية وأن يشرح أسرار تلك العظمة وأن ينبه ما غفا منها ويصقل ما صدىء ويرد كل سر منها الى أصله وخصائصه الذاتية ويسمو به الى أعلى ملأ • يقول في مقدمة كتابه « عنقاء مغرب » : « فليس غرضي في كل ما اصنف في مثل هذا الفن معرفة ما ظهر في الكون وانما الغرض معرفة ما وجد في هذا العين الانساني والشخص الآدمي • »

وكما أن الروح غائبة في الجسم وهي المعنى العلوي للانسان ، كذلك الاشياء كلها لها معان هي كالارواح •

ولهذا كان الظاهر دليلا على الباطن وطريقا اليه وحافزا على استجلائه واكتناهه • فالاشياء بظواهرها تبدو لنا ألغازا ينبغي لنا أن نبحث عن حلولها ورموزا يجدر بنا أن نتبين ما تومىء اليه وتشف عنه • ولا نعرف مذهبا في الشرق ولا في الغرب بلغ ما بلغه مذهب ابن عربي في الاحتفاء بالرمز وفي اعلاء شأنه في ميدان الفكر • وقد عالج ذلك في مواضع مختلفة من كتبه وأفرد فصلا في الفتوحات عن « منزل الرموز » يورد في مستهله على عادته شعرا له وهو :

منازل الكون في الوجود
منازل كلها رموز
منازل للعقول فيها
دلائل كلها تجوز

ثم يعقب على الشعر بقوله : « الرمز واللغز هو الكلام الذي يعطي ظاهره ما لم يقصده قائله وكذلك منزل العالم في الوجود ما أوجده الله لعينه وانما اوجده الله لنفسه ثم يقول : فانا لغز ربي ورمزه • ومن عرف اشعار الالغاز عرف ما أردناه ••• »

الانسان لغز ربه اذن • وكما انا في اشعار الالغاز

---

(٥) كتاب « تنزلات الاملاك » المطبوع بعنوان لطائف الاسرار ص ١٤٤ ـ ١٤٦ • الفرس باللاتينية الاخيرة كبالوس
وكانت اللغة الاسبانية والبرتغالية اذ ذاك في طور التكون • ويقول الاسبانيون والبرتغاليون اليوم كبايو

وألوغ آت من لوغوس أي الكلمة ، والهمزة في اليونانية للسلب أي العجماء التي لا تنطلق آو البهيمة ، وكان يطلق على الحيوان والفرس • وفيهما أيضا أط والمعاجم التركية كانت تكتب أت • وقد كتبها الشيخ بحسب لفظها • وفيهما سي ، والارمن يلفظون اليوم تسي كما أثبتنا ولكنهم يخففون التاء •

(٦) الباب الثاني والاربعون ومائتان في الجمال ج ٢ ص ٥٤٢

نتجاوز ظاهر الألفاظ للوصول الى الحل كذلك في الكون ينبغي أن نفتش عن السر في الانسان .

ولهذا كان الانسان اداة التغيير في الكون ولوح المحو والاثبات على حد قول ابن عربي حين يقول : « العبد هو محل الالقاء الالهي من خير وشر شرعا وهو لوح المحو واثبات (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب) فيخطر للعبد خاطرا أن يفعل أمرا من الامور ثم ينسخه خاطر آخر فيمحي الاول ويثبت الثاني . »

وكل شأن روحي في الانسان مقدس : « ان اللسان قلم القلب تكتب به يمين القدرة ما تملي عليه الارادة من العلوم في قراطيس ظاهر الكون . والى هذا المقام أشرت بقولي :

قلمي ولوحي في الوجود يمده

قلم الاله ولوحه المحفوظ

ويدي يمين الله في ملكوته

ماشئت أجري والرسوم حظوظ »

هذا وان تقدم العلم الحديث عزز فكرة ابن عربي من حيث فهمه للانسان ومن حيث بيانه جهة خلافته في الكون وايداعه المسؤولية الكبرى فيه وسر الخلق والابداع . وانا لنشهد في هذا العصر محاولات الانسان لغزو الفضاء والتحليق في السموات والوصول الى القمر والزهرة وغيرهما ، وكل كتابات ابن عربي لتشف عن هذه القدرة التي اوتيها الانسان العظيم . وهو قد ينقله الى السماء والكواكب والافلاك فذلك سهل هين عليه . والذي يطالع ما كتب يدرك في معراجه وفي صوره ومشاهداته ورؤاه أمثلة طريفة من ذلك ولكنه بحركة مقابلة ينقل السموات والافلاك الى الانسان . وفي مواضع من كتبه يبرز الجوانب المتقابلة بين النسختين العالم الاكبر والعالم الأصغر الذي هو الانسان . ولعل من أطرف ما كتب هذا الفصل الذي يدعوه في الفتوحات أرض السمسمة .

ذلك أنه على حد رمزه وخياله قد فضلت من خميرة طينة آدم فضلة خلقت منها شجرة النخلة فهي أخت لآدم وهي عمة لنا ثم « فضل من الطينة بعد خلق النخلة قدر السمسمة في الخفاء فمد الله في تلك الفضلة أرضا واسعة الفضاء اذا جعل العرش وما حواه والكرسي والسموات والارضون وما تحت الثرى والجنات كلها والنار في هذه الارض كان الجميع فيها كحلقة ملقاة في فلاة الارض وفيها من العجائب والغرائب ما لا يقدر قدره ويبهر العقول أمره .

وفي كل نفس خلق الله فيها عوالم يسبحون الليل والنهار لا يفترون . وفي هذه الارض ظهرت عظمة الله وعظمت عند المشاهد لها قدرته . وكثير من المحالات العقلية التي قام الدليل الصحيح العقلي على احالتها هي موجودة في هذه الارض وهي مسرح عيون العارفين العلماء بالله وفيها يجولون . وخلق الله من جملة عوالمها عالما على صورنا اذا ابصرهم العارف يشاهد نفسه فيها ، وفيها البساتين والجنات والحيوان والمعادن ما لا يعلم قدر ذلك الا الله تعالى .. » الى اخر الاوصاف العجيبة التي يوردها المؤلف والتي لا يتسع هذا الحديث للاتيان عليها مع امتاعها وطرافتها ولزوم تحليلها .

والنساء في هذه الارض أجمل من حور الجنان يقول المؤلف : « واذا نظرت الى نسائها ترى أن النساء الكائنات في الجنة من الحور بالنسبة اليهن كنسائنا من البشر بالنسبة الى الحور في الجنان » ويعود فيؤكد المؤلف ما ذكره في بداية الفصل فيقول : « كل ما أحاله العقل بدليله عندنا وجدناه في هذه الارض ممكنا قد وقع » وتذكرنا هذه الجملة الاخيرة ما جاء في رواية « فاوست » الثانية للشاعر الالماني الكبير غوته حين يقول في البيتين ١٢١٠٨ ــ ١٢١٠٩ ما ترجمته المستحيل على الوصف يقع ههنا بالفعل .

وينبغي ان نتنبه الى هذه الجملة التي وردت في النص : وخلق الله من جملة عوالمها عالما على صورنا اذا أبصرهم العارف يشاهد نفسه فيها » فهي تشير الى ان نمط رؤية الارض هو عينه نمط رؤية النفس فصورة تلك الارض صورة النفس أو الروح وبتلك الصورة ترى الروح نفسها وتتأمل قواها وطاقاتها وآمالها ومخاوفها ولا مكانة للاعتراضات العقلية ازاء تلك الارض لانها مكان نشوء الرموز المستمر المتجدد تلك الارض ليست في النهاية الا عالم الروح الذي نطلع بالخيال على سعته ورحابته وصوره .

الخيال اذن ملكة الرمز . وعالم الرمز واسع هو

عالم الانسان وعالم الطبيعة وعالم الفكر ولذلك يتصل بالامور النفسية والاجتماعية والطبيعية والفنية والدينية وغيرها • فالرمز قائم في كل مكان من الكون • كل شيء يحمل سرا وسر الاسرار هو الانسان •

الرمز جدلية الظاهر والباطن والجسم والروح والاسم والمعنى والمشف والكثيف والمادة والفكر والسر والجهر والشكل والمضمون والقريب والبعيد والسهل والممتنع وهو موضع الفهم والادراك • والتأويل يوقف النظر النافذ الى الاشياء ليستهويه بفحواها ومعانيها الماثلة بينها وبينه •

ولجدلية الرمز هذه نجد مواقف المفكرين والفلاسفة تختلف من قبول او انكار واثبات او نفي ورضا أو كراهية ان الرمز جفر السر ورسالة الذكاء ولسان التبصر والحذر • ولكنه يبقى أقرب الى الصفة الخارجية فهو يقابل الغيب مقابلة البيان للمعاني •

يقول ابن عربي في كتاب التراجم : « الرمز ليس من شأن الامر فانه يقابل البيان وأصحاب الرموز رمزوا لامرين لتوقع الضرر أو لعدم الاحترام » ويشير الى ضرورة التنبيه على الغرض دون التصريح في عنقاء مغرب :

نبه على السر ولا تفشه
فالبوح بالسر له مقت
على الذي تبديه فاصبر له
واكتمه حتى يصل الوقت

ويشرح سبب ذلك في الكتاب نفسه حين يقول : « فتأمل هذه الاشارات في نفسك واجتمع عليها بقلبك وحسك فان الزمان شديد وجباره عنيد وشيطانه مريد فانسلخ منه انسلاخ النهار من الليل ، والا فقد لحقت باصحاب الثبور والويل وقد نصحتك فاعلم واوضحت لك السبيل فالزم » •

ويدل ذلك كله على أن الضغط السياسي كان شديدا في المغرب • ومن المعلوم التشديد الذي حصل على المفكرين في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف ابن تاشفين ملك المرابطين في الاندلس والمغرب جميعا وكذلك محنة ابن رشد في زمن ابي يوسف ملك الموحدين حين أمر باخراجه على حال سيئة وابعاده وابعاد من يتكلم في شيء من هذه العلوم وكتبت عنه الكتب الى البلاد بالتقدم الى الناس في ترك هذه العلوم جملة واحدة وباحراق كتب الفلسفة كلها الا ما كان من الطب والحساب وما يتوصل به من علم النجوم الى معرفة اوقات الليل والنهار وأخذ سمت القبلة ولقد كان ابن عربي اذ ذاك شابا •

ومثل هذا الضغط ألحق الضرر البالغ بتفتح المواهب الفكرية على اختلاف الوانها في ذلك العهد ذلك أن الفكر لا ينمو ولا يتقدم الا في جو تخفق فيه أنسام الحرية •

على أن تقديس ابن عربي للانسان انما يتناول فكره وروحانيته وهو قد انتبه الى انتظام الموجودات من جهة الجسمانية والطبيعة والى ترتيب انواعها وتسلسل آفاقها قبل ابن خلدون • يقول في كتابه تنزلات الاملاك :

« وتداخلت الموجودات بعضها في بعضها وحصل خفضها في رفعها ورفعها في خفضها واستحال المعدن نباتا والنبات حيوانا والحيوان انسانا والانسان معدنا ، وضرب الكل بالكل ، وظهرت القوة بالفعل وعاد العزيز ذليلا والذليل عزيزا والحديد لجينا والنحاس ذهبا ابريزا والمركب محللا مفصلا والمحلل مركبا موصلا • »

ولكن الامور الروحية تبقى ثاوية في الاشياء والاشكال والامور الحسية ثواء المعاني في الالفاظ والحروف وهذه الاشياء والاشكال والامور الحسية على اختلافها عماد تلك وسندها وظروفها الخارجية وهذه بالنسبة الى تلك كاللغز بالنسبة الى المعنى الملغز فيه • بل ان الجمع بين الحس والفكر في الانسان اكمل واعلى من انفراد الروح وحده يقول ابن عربي على لسان نبينا ابراهيم في كتابه التنزلات : « يا بني اذا سريت بفكرك في عالم المعاني انحجب حسك عن التلذذ بالمغاني ، واذا سرى حسك في عالم المعنى لم ينحجب سرك عن مشاهدة المغنى فالبقاء مع الحس أولى في الآخرة والاولى • »

ولذلك كله لا نستغرب أن يتخذ هذا الفيلسوف جميع المظاهر والاشياء والافكار والالفاظ والحركات والسكنات رموزا تشف عن مقاصده الفكرية وأن يعتبرها اشارات اليها • ولكن الظواهر الجميلة خاصة كانت عند أمثال هذا العارف موضعا للتأمل ومجالا للوجد

ومتاعا للارواح وزينة يفنون في مشاهدتها •

على ان الشيخ الاكبر يترك على طريقة رمزه للباحث لذة التنقيب والغوص في بحره العميق • والسابح الغواص واصل في الاعماق الى لآلىء روحية وجواهر فكرية نفيسة عالية غالية تبص بالنور المتألق الهادي هي في الحقيقة لآلىء فكر الانسان وجواهر كنهه العلوي •

ويطول بنا المجال اذا اردنا ان نتتبع انواع الرموز التي استعملها في بيانه نثرا وشعرا والتي تبدو المذاهب البيانية في الغرب شاحبة بالنسبة اليها وكذلك اذا اردنا ان نبحث آراءه حول ما يدعى وحدة الوجود

وهذه النظرية مبثوثة في كتبه وأشعاره • وهي بوجه عام ذات أشكال متفاوتة • ونستطيع ان نقول ان ابن عربي يرى أن الخالق على بعد من المخلوقات يساوي اللانهاية والصفر معا • فهو بعيد عنها ومتعال من جهة الذات الاحدية المطلقة وهو قريب منها الى حد انه ينعدم البعد اذا نظر الى الاسماء الكيانية والاسماء الالهية المتجلية في المخلوقات والمتحققة فيها •

ولكن لا يفوتنا في نهاية الحديث الاشارة الى كتابه الشعري الصغير ترجمان الاشواق الذي ألهمته اياه فتاة في ريق الشباب ومستقبل الحسن « ساحرة الطرف عراقية الظرف » على حد تعبيره تسمى بالنظام شاء القدر فألقاها في طريقه • ولكن شيخنا الاكبر امام هذه الفتاة الرائعة كان من المعرفة والحب الالهيين في مقام يستطيع فيه كالشعاع ان يغازلها ويتغزل بها ثم يرتد كما يرتد الشعاع صافيا نقيا دون ان تعلق به ريبة • وأبياته تلك التي أطلق عليها اسم ترجمان الاشواق تفيض بالميل وتتلوى بالاحساس ومع ذلك ينبغي صرف هذه الابيات عن ظاهرها والبلوغ الى المعارف الربانية وراءها وقد أنكر عليه بعض فقهاء مدينة حلب ذلك واتهموه بالتستر فاضطر عندئذ الى شرحها شرحا صوفيا فيه شيء كثير من المهارة والحذق في كتابه ذخائر الاعلاق • وقد استهل الشيخ شرحه قائلا : « الحمد لله الحسن الفعال الذي يحب الجمال خلق العالم في أكمل صورة وزينه وأدرج فيه حكمته الغيبية عندما كونه وأشار الى موضع السر منه وعينه وفصل للعارفين مجمله وبينه جعل ما على أرض الأجسام زينة لها وأفنى العارفين في مشاهدة تلك الزينة وجدا وولها • » وينبغي ان نفهم من « موضع السر » انه يريد به الانسان اكمل المخلوقات نشأة •

ولا أجد أفضل ختام لهذا الحديث من قصيدة له وردت في ذلك الكتاب الصغير تتصاعد كالنغمة الحلوة شدوا في جو انساني رفيع خالد يبشر بالسلام المستفيض والمحبة الشاملة والحرية العميقة السليمة • ويزيد في رفعتها وانسانيتها انها قيلت في عهد الحروب الصليبية الذميمة وتلك القصيدة من وحي نظام • وقد طارت بعض ابياتها شهرة :

الا يا حمامات الاراكة والبان
ترفقن لا تضعفن بالشجو اشجاني

ترفقن لا تظهرن بالنوح والبكا
خفي صباباتي ومكنون أحزاني

اطارحها عند الاصيل وبالضحى
بحنة مشتاق وأنه هيمان

تناوحت الارواح في غيضة الغضا
فمالت بأفنان علي فأفناني

وجاءت من الشوق المبرح والجوى
ومن طرف البلوى الي بافنان

فمن لي بجمع والمحصب من منى
ومن لي بذات الاثل من لي بنعمان

تطوف بقلبي ساعة بعد ساعة
لوجد وتبريح وتلثم أركاني

كما طاف خير الرسل بالكعبة التي
يقول دليل العقل فيها بنقصان

وقبل أحجارا بها وهو ناطق
واين مقام البيت من قدر انسان

ومن اعجب الاشياء ظبي مبرقع
يشير بعناب ويومي باجفان

ومرعاه ما بين الترائب والحشا
ويا عجبا من روضة وسط نيران

لقد صار قلبي قابلا كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب اني توجهت
ركائبه فالحب ديني وايماني

أثر العرب في ثورة العلم ..

بقلم الدكتور : عادل العوا

يوازن الفيلسوف المعاصر المعروف ، (برتراند رسل) ، في مؤلف اخير من مؤلفاته ، يوازن بين اثر اليونان والعرب في نهضة الفكر العلمي وتطبيقاته العملية على الصعيد العالمي فيقول :

« عندما ظهر العرب في التاريخ اصبح للعلم وظيفتان متميزتان : اولاهما اتاحة المعرفة للانسان • والاخرى فسح مجال العمل امامه • فالاغريق ، باستثناء (ارخميدس) ، لم يعنوا الا بالوظيفة الاولى ، وظيفة المعرفة • وقد برهنوا على شغفهم العظيم بطلب المعرفة للمعرفة ، وتساءلوا عن العالم وبنيته • ولكن الاغريق شعب كان يعتمد على عمل العبيد والارقاء ، ولا يتذوق الاهتمام بالنواحي « التقنية » والعملية الا قليلا • وحينما ظهرت العناية بتطبيق العلم على العمل فانما ظهرت في ثوب الخرافة والسيمياء • وقد ابدع العرب في سبل الكشف عن الحجر الفلسفي ، والتنقيب عن الاكسير الذي يطيل العمر ، وبحثوا عن تحويل المعادن الى ذهب ، وقطعوا في هذا المضمار شوطا بعيدا ، وتوصلوا الى طائفة كبرى من الاكتشافات النافعة في ميدان السيمياء • ولكنهم لم ينجحوا في معرفة القوانين العلمية التجريبية معرفة كاملة دقيقة • وسبب ذلك ان اجهزتهم كانت لا تزال ابتدائية اولية » •

ولا نود ، في هذا المقال ، ان نقصر كلامنا على هذا الرأي الذي يعترف للعرب بمكانة كبرى ، ومنزلة رئيسية ، في مجال التاريخ البشري العام لنستجلي من الموازنة بين العرب واليونان دروب اعتزازنا القومي في هذا المضمار • وانما نحب ان نبين ان العرب في الماضي لم يميتوا عقولهم ، ولم يحبسوا اذهانهم في اطر ضيقة عمياء ، ولم يكونوا بمعزل عن دفع عجلة التقدم الثقافي والفلسفي الى الامام • فقد ضربوا بسهم في كل ميدان ، واصابوا حظا وافرا من التفوق والنجاح • ويكفيهم فضلا انهم اول من نحا بالمعرفة العلمية في منحى العمل والحياة ، هذا المنحى الذي ازدهر من بعد في الغرب الاوربي ثم في سائر اصقاع العالم المتمدن ، فأخذت به الامم الراقية النامية ، فكان اساس الحضارة الحديثة ، حضارة الآلة و « التقنية » ، ودعامة المدينة المعاصرة ، مدينة الاشتراكية وغزو الفضاء •

والواقع ان للعلم وظائف كثيرة ، **اسهم العرب** فيها جميعا ، وكان لاسهامهم الاثر البين ، **والتأثير** العميق • فمن الثابت ان للمعرفة العلمية وظيفة اولى لم

وتفسير ذلك ان الشعوب المختلفة كانت تخضع القضاء على العقلية الخرافية السحرية الغيبية ، وهي وظيفة تتقدم باهميتها على انشطار فاعلية العلم الى نشاط مزدوج ومتكاملة ، نشاط المعرفة النظرية بالقوانين ، ونشاط تطبيق هذه المعرفة في ميدان العمل والحياة لاستخلاص امكانات السيطرة على الطبيعة وتسخير قواها الجبارة لمشيئة الانسان •

وتفسير ذلك ان الشعوب المختلفة كانت تخضع لاعتقادات سحرية زائفة ، فتعزو المرض وسوء الحصاد مثلا الى تأثيرات غيبية خفية ، او الى غضب آلهة المطر او الزراعة او الريح • وقد ذهب ظن القدامى الى ان القضاء على الافات والكوارث والامراض انما يكون بالنذور والذبائح والقرابين ، ولو كان بعض هذه الذبائح بشرية من الجنس اللطيف كعروس النيل • وقد أطنبت التوراة في الكلام على شعائر الذبح والافداء ، ولم يتحرر الاغريق من ذلك الا في القرن السابع قبل الميلاد ، وظل القرطاجيون يقدمون الاضاحي البشرية في زمن الحروب • وما زلنا نذكر تفسير الكسوف والخسوف ، والفتن والنوازل ، تفسيرا فلكيا بحركة المذنبات ، حتى ان (شكسبير) نفسه لا يأنف من القول بان مذنبا خاصا انذر باغتيال (قيصر) ، لان السماء تحترق لتنذر بموت اصحاب السمو والامر ، ولا تأبه لموت الصعاليك !••

وفي التاريخ الاوربي ، كما في تاريخ العرب ، امثلة كثيرة تترى ، واحداث مختلفة تدل على كفاح العلم ونضاله في سبيل غزو استقلال الفكر العلمي وتغلبه على مقاومة الرجعية الذهنية والخرافة والمكر على السواء •

فلما عني ملك بريطانيا (شارل الثاني) بالعلم واهله ، واسس « مجمعا ملكيا » ، وانتشر الطاعون في (لندن) ، واحترقت المدينة حريقها المشهور ، الف مجلس العموم البريطاني لجنة للنظر في اسباب ذاكم البلاء المستطير ، فجاء في تقريرها ان سر هذا الغضب السماوي هو انتشار مؤلفات الفيلسوف (توماس هوبز) ، المقرب الى الملك ، فاضطر الملك الى الاذعان ، وامر باضطهاد هذا الفيلسوف ، واحراق كتبه ، وحدث مثل ذلك ، على اختلاف في نوعية الاسباب ، عندما تعرض الفيلسوف (ابن رشد) لكره رجال البلاط ومكر الفقهاء من ذوي النفوذ العظيم لدى المسؤولين من الحكام •

غير ان هذه الحوادث التي كانت اشبه بالنكسات الموقوتة في تاريخ النضال العلمي في الشرق وفي الغرب لم تمنع العلم من ان يقضي ، في وظيفته الاولى ، على الخرافة والسحر ، ويحارب الدجل بمختلف وجوهه ، وان لقي في نضاله عنتا ومشقة وعسرا • وما زال العلم والفكر العلمي يثابر على الجهاد والكفاح ، ويتقدم خطوة خطوة ، ويحقق في تقدمه ثورات متكررة ، ويتمرد على السلطة الضالة ، ولو كانت سلطة كبار الفلاسفة والعلماء انفسهم ، وكان للعرب في ذلك كله فضل السبق الى التزام هذا النضال المشرف المجيد •

زعم (ارسطو) ان عدد اسنان المرأة اقل من عدد اسنان الرجل ، ولم يثنه عن عزمه هذا ان كتب له الزواج مرتين • وزعم كذلك ان الاولاد الذين تحمل بهم امهاتهم ساعة هبوب ريح الشمال يولدون اقوى من سواهم • وزعم ايضا ان الكلب ينقل العدوى الى الحيوانات من دون الناس ، وان الفيلة تأرق فيزول ارقها اذا مسحت اكتافها بمزيج الملح وزيت الزيتون والماء الحار • ونحن لا نحتاج الى اكثر من الاشارة الى موقف اكابر العلماء العرب والمفكرين ، وفي طليعتهم (الجاحظ)، وقد تمرد على سلطة (ارسطو) العظيم ، كما تمرد (ابن سينا) ورفض الخضوع لهذه السلطة مؤثرا اتباع الحق المبين •

اعلن العرب اذن ثورتهم الثقافية على التواكل والاستسلام ، وجعلوا شعار (الجاحظ) شعارهم حين قال : لا تشفيني الا المعاينة ، ورجعوا الى محك التجربة والملاحظة والمنطق والعقل معا • وهذا كله يؤلف الروح الانتقادية ، روح العلم الحديث • وفي هذا المضمار ذاته نجد اسهام العرب عظيما في تطوير الفكر البشري وتزويده بسلاح الوعي السليم • ان (اخوان الصفاء) ينقدون السياسة والثقافة والعقائد والمجتمع قبل الف عام • و (المعري) ينقل الروح الانتقادية من امور الدنيا الى امور الآخرة ، ويسمو الى الاوج في رسالة الغفران • وبقي (دانتي) من بعده يؤمن بان الارض مركز الكون ، وان الاشرار يسامون العذاب في باطن الارض ، والاخيار يرقون الى جبل البرزخ ، وهو يقع جغرافيا مقابل موقع القدس من الكرة الارضية ، وكان رأيه في ذلك الحين رأي متمرد ثائر جرىء •

وجملة القول ، ان المعرفة العلمية حركة نامية متجددة باستمرار • ولا يستطيع المنصف ان يطلق على امة من الامم ، حكما من الاحكام ، الا بالرجوع الى تاريخ اسهام هذه الامة في اسباب تطور الحضارة وتقدم الانسان في سبل المدنية والعمران • وقد كان للعرب فضل كبير في الانتقال بالمعرفة العلمية من مستوى المعرفة النظرية التأملية الى مستوى معرفة مشخصة واقعية عملية ناجعة معا • وما السيمياء الا وظيفة العلم حين هبط العلم من البرج العاجي الى انابيب التجربة وثورة الانابيق • وعلى العرب اليوم ، وهم ينظرون الى غدهم المشرق ، ان يثقوا بامكاناتهم الراهنة ، ويعيدوا انتماءهم الى فكرهم العلمي الصحيح ، وروحهم الانتقادية المجدية ، مؤمنين بقدرتهم على النجاح في تطوير العلم وتطوير العمل بآن واحد ، فيتذكروا اسهامهم الحقيقي في خدمة الانسانية من جديد انما هو سبيل مجاراة الحياة ، حياة العلم والفكر ، وسبيل الانطلاق من سجن الحجر المقبول او المفروض على عقولهم وسواعدهم ، ليربطوا مرة اخرى تاريخهم العظيم ، بمستقبل العلم المتطور ، والفكر الحر المقدام ، وهو مستقبل الانسان •

نظرات في القضية العربية

بقلم الدكتور . نور الدين حاطوم

نعني بالقضية العربية حركة استقلال العرب ووحدتهم . والمراقب للحركة القومية العربية يرى ان هذه الحركة تتفق من بعض الوجوه مع سائر الحركات القومية في العالم ، وتختلف عنها في وجوه أخرى . فمما لا شك فيه ان الحركة العربية كحركة سياسية قد سبقت بقيام نهضة فكرية عامة تجلت بالتوكيد على اللغة العربية باعتبارها الرابطة المشتركة بين العرب جميعا في شتى اقطارهم وامصارهم ، وبعث الادب العربي والتراث العربي والتاريخ العربي ، وخاصة في الفترة التي انقضت بين ظهور الاسلام وسقوط بغداد ، باعتبارها الفترة المشرقة في تاريخهم ، التي تذكرهم بأنفسهم ، وبأنهم قوم كانت لهم أمجاد ورسالة حضارية ، وتشعرهم بأنهم سليلو أمة واحدة بالرغم مما باعدت قوى العدوان والاستعمار فيما بينهم .

ولا ريب في ان الوعي الثقافي القومي أدى بالمفكرين العرب ، تحت تأثير عوامل مختلفة ، الى ضرورة التفكير بزحزحة النظام القائم ، وتحرير العرب من نير الحكم الاجنبي أيا كان نوعه . ولكن هذا التفكير أخذ في الواقع وجهات مختلفة . والسبب في ذلك يرجع الى عاملين : اولهما عدم وجود خطة موحدة بين مفكري العرب آنذاك تدل على القيام بعمل مشترك وفي اتجاه واحد . وفي الحقيقة لقد خامرت فكرة التحرر والاستقلال الرؤوس المستنيرة من ابناء العرب ، ولكن تنفيذها ظل جزئيا وفرديا ولم يكن جماعيا يعمل حسب برنامج مرسوم . وثانيهما تعدد الاستعمار في البلاد العربية . وقد بدأ الاستعمار في افريقية العربية وتنوع بين اسباني وفرنسي وانكليزي وايطالي ، وعزل الاقاليم العربية الافريقية عن بعض ، كما عزلها عن اقاليم الشرق العربي . ولما زال الاحتلال العثماني عن البلاد العربية في آسيا امتد الاستعمار الفرنسي والانكليزي على تركة الامبراطورية العثمانية في بلاد الهلال الخصيب فقسمها الى مناطق نفوذ واحتلال وانتداب . ودام هذا الانتداب طوال فترة ما بين الحربين ، ولما تزل بعض آثاره ماثلة في بعض البلدان العربية بالرغم مما نالته من استقلال .

وهذا التنوع الاستعماري في البلاد العربية كانت له نتائج خطرة عاجلة وبعيدة آجلة وما زالت تعمل عملها في فترة الاستقلال ، التي يجتازها العرب اليوم ، فمن ذلك ان الاستعمار عزل الاقاليم العربية عن بعضها في آسيا وافريقية . ولذا كانت الحركات التحررية التي قامت بها حركات تحررية اقليمية محلية اكثر منها قومية .

وقد نجم عن هذه التجزئة الاستعمارية أن أخذ كل اقليم عربي يكافح الاستعمار منفردا ومعتمدا على نفسه وبقواه الخاصة اكثر من اعتماده على التأييد المعنوي والعون المادي والمشاركة الفكرية والقلبية بل والمساهمة الفعلية التي يلقاها من الاقاليم العربية الشقيقة اذا سمحت الظروف .

وترتب على هذا النضال الاقليمي المرير اعتزاز قادة الحركة الوطنية بجهودهم وجهادهم وأعمالهم التي آلت بهم الى الاستقلال التام الناجز والى الاعتراف الدولي باستقلال بلادهم . وقامت على هذا الاستقلال منافع سلالية ومصالح ملكية وميرية ورئيسية واطماع فردية ونزعات انفصالية . ولقد كان من الطبيعي ان يعود الممنوع بذهاب المانع وتنسف الحدود والقيود بين الاقاليم العربية بعد تقدم الثقافة ونمو الوعي وتكامله ، وتعود الاجزاء لتنضم الى بعضها لتحقق بالتدريج وحدتها العتيقة ، ولكن

واقع الامر دل على ان المصالح المادية اقوى من الاعتبارات العاطفية والقومية • وانا لنجد هذه التجزئة بارزة في تاريخ القضية العربية : من تنافس الزعماء والقادة واختلاف مصالحهم ومقاومة بعضهم بعضا بل الوقوف موقف العداء والحذر • فعندما نشبت الحرب العالمية الاولى وقام احرار العرب على الدولة العثمانية ، وجدت بلاد عربية في قلب المعركة ، وبلاد في معزل تام عنها ، وبلاد محايدة ، وبلاد مناوئة وتتربص بالاخرى لتقضي عليها • وعندما وضعت القضية ثانية في الحرب العالمية الثانية أخذت المصالح المادية على اختلافها بعين الاعتبار ، ولم يسع الممثلون العرب ، لما لمسوه من تنافس ومصالح قائمة ، الا التقيد بهذه المصالح وعدم اغفالها بل وحمايتها عند تأسيس جامعة الدول العربية • كما اظهر تاريخ جلسات الجامعة اكثر من مرة تغلب قوة التنافس والمصلحة الفردية على المصالح القومية العليا •

ومنذ الحرب العالمية الثانية وتيار الوحدة العربية آخذ بالنمو بعد ان نالت اكثر البلاد العربية استقلالها ، ولكن المصالح الخاصة بقيت تطغي على المصالح العامة ولا تحاول ان تذوب في بوتقتها •

وبالمقابل تدل قرائن الحوادث ان العرب ، كلما الم بقطر من اقطارهم خطب ، هبوا لنصرته بشتى الاساليب والوسائل ، واعتبروا ان الخطر الذي يهدد اي بلد عربي انما يهدد البلاد العربية جميعا • وما ان تزول الازمة ، الا ويعود التنافس والتنابذ والمهاترة بين الكبار • فهل هذا يعني ان العرب ، بالرغم من تطورهم ، وبالرغم من الظروف الحضارية التي تحدق بهم يجب ان يظلوا ضحية للعقلية القبلية ويتأثروا بها الى حد بعيد ولدرجة تحول بينهم وبين الأخذ بمسلمات عصرهم ومن اهمها وحدة الكلمة وعمل الجماعة في الاطار القومي وصعيد التنظيم الاقليمي !

ان كثيرا من المفكرين العرب ينسبون التنابذ الحالي الذي يسود دنيا العرب الى الاستعمار ، أس البلاء • ولكن الذي يجب ان يقال في هذا السبيل هو ان الاستعمار لا يمكنه ان يعمل غير ذلك ، بل وانه متربص لهذا ، وهو يقوم بوظيفته التي خلق لها ، ولا يؤمل منه ان يأتي بخير • اليس العرب مسؤولين اولا واخيرا عن تصرفاتهم قبل ان ينحوا باللائمة على الاستعمار • وهل يكون للاستعمار أي دخل لو كانت البلاد العربية موحدة الكلمة ولا تنافس فيما بينها ، وهل يجب ان يبقى الاستعمار جاثما فوق صدر البلاد العربية ليبقى للعرب رأي موحد وعزم موحد وكلمة موحدة • حقا لقد كان تاريخ الاستعمار في البلاد العربية مأساة خالصة ، ولكن المأساة الكبرى ان يكون العرب في هذا العهد الاستقلالي على درجة من التمزيق والانقسام والمنازعات والمهاترات لم يروها من قبل في تاريخهم الطويل ، وان يوقع العربي بأخيه العربي ، ويكيل له الاتهام في وطنيته وقوميته وجميع شعاراته التي يحملها ويؤمن بها ويدعو لها •

ان الشعب العربي يجتاز اليوم محنة مزدوجة : محنة الاستمرار في كفاح الاستعمار التي لم تنته بعد ، ومحنة الفرقة المخيمة على الاجواء العربية • اما ان يقال ان الشعب العربي في ثورة عارمة وغليان قومي فما ذلك الا نوع من المغالطة الفكرية يراد به تغطية العيب الظاهر ، او التغاضي عن الواقع الاليم الذي أوجده زعماء العرب لانفسهم ولبني قومهم او كانوا عاملا من جملة العوامل في ايجاده • وهم على كل حال مسؤولون عنه أمام مواطنيهم وأمام الاجيال العربية الصاعدة في المستقبل وأمام التاريخ •

ولعل الاقلام العربية الخيرة المخلصة تدعو الى تنقية الجو العربي من غبار المشاحنات والملابسات ، بعد ان سخرت بعض الاقلام والافكار نفسها رخيصة لحملات التفرقة والصيد بالماء العكر • وليعلم ان هذا الوضع لا يفيد منه الا الاستعمار والدول الاستعمارية ، وأن أداء الرسالة العربية وتكوين القيم ، وبناء المجد العربي لا تقوم الا في جو الاخاء العربي الخالص والود المتقابل والاحترام المتبادل فعسى أن يبدل أهل الرأي ورجال الحكم وأهل السلطة في بلاد العرب ما بأنفسهم ليبدل الله ما بقومهم ، الا اذا ارادوا هلاكه فهذا أمر آخر ، ولا يحيق المكر السيء الا بأهله • واما ما ينفع الناس فيبقى مخلدا ابد الدهر •

عينان لا تغفران

شعر : ابو سلمى







تغزل عيناك الهوى خلسة
لله عيناك وما تغزلان

يحمل سحرا أمويا فهل
يقوى على هذا الهوى الخافقان

هذا الهوى المغزول من فتنة
يملأ دنياي ودنيا الزمان

في كل درب من دروبي أرى
أسرار عينيك وما تخفيان

هل شفتاك الشعر رواهما
أم شفتاك اليوم أغنيتان

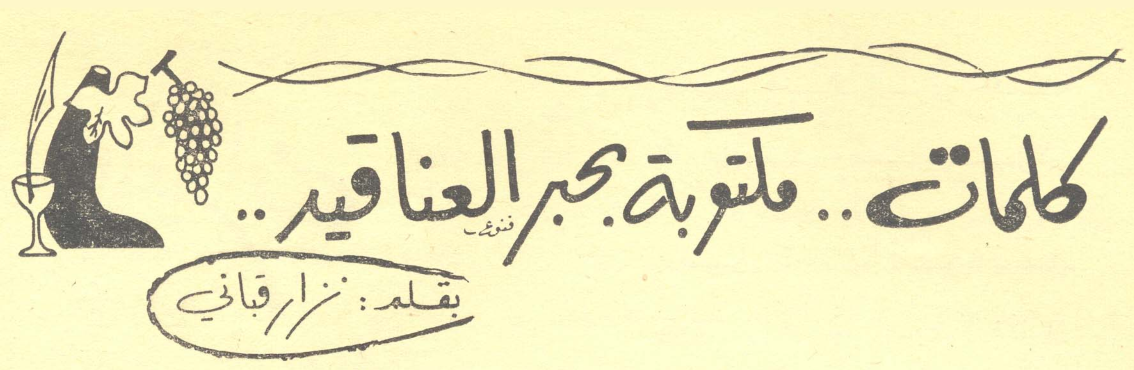
كيف الفرات العذب لا ترتوي
منه دمشق الشام والغوطتان

سفائن الشوق التي بيننا
لا تحرقيها ... أين شط الامان

لولا جناحاك ولولا مدى
دمعي لما أزهرت الضفتان

يغفر لي حبي لعينيك ما
أشقى هوى عينين لا تغفران





موعدي مع زحلة(١) احلى موعد اعطيته في حياتي .

هل يتاح لشاعر ان يرقد على مخدة من ورق الدوالي ويتردد ؟

هل يتاح لشاعر ان يكون منبره مصنوعا من ضفائر عريشة ، ويرفض النوم على تخت من الضفائر لا أطرى .. ولا أطيب ؟

ما أنا .. ما أنا من يهرب من معركة العناقيد .. ومعركة الضفائر . فهي المعركة الوحيدة التي يطيب لي ان اموت على أرضها . المعركة الوحيدة التي تكون فيها نكهة الهزيمة أحلى من نكهة النصر ..

في دمشق تركت كل محابري والواني . ففي زحلة لا لزوم للمداد والاصباغ والمحابر . العناقيد السوداء والحمراء التي تشرق بالضوء والسكر على روابيكم هي المحابر الطبيعية التي يتمنى كل موهوب أن يغط حروفه فيها .. ويستحم في نزيفها الذهبي .

●

طالما لعبت في طفولتي امام (بحيرة الشعراء) هنا . طالما مسحت باناملي رخامها .. وطربت لوشوشة نافورتها المغنية . طالما تمنيت ان يعمدني احد بمائها المثلج فأصبح واحدا من اولئك الشعراء الذين حفروا اسماءهم في ذاكرة الرخام .. وذهبوا ..

كان خيالي الطفولي مقتنعا ان من لا يغمس اصابعه في ماء البحرة المسحورة لن تكلمه جنية الشعر .. ولن تأخذه معها الى مغارتها المسحورة تحت البحر أبدا ..

وأنا كنت اريد ان ارى الجنية ذات العينين البنفسجيتين بأي ثمن .. كنت اريد ان تأخذني معها الى بيتها المخبوء في جوف صدفة بحرية كبيرة .. لتعطيني خاتمها العجيب .. الذي كلما فركته مرة .. اعطاني قصيدة ..

●

وكبرت انا . وكبرت زحلة . وعرفت اكثر من جنية واحدة ، واكثر من عين بنفسجية واحدة ..

---

(١) الكلمة النثرية التي قدم بها الشاعر لأمسيته الشعرية في زحلة يوم ٩ حزيران ١٩٦٢

واصبحت مهنتي ان افرك الخواتم المسحورة واستخرج منها اشعارا واقمارا ..

واليوم اعود الى (بحرة الشعراء) لأغمس اصابعي من جديد في الماء المثلج الذي تعمدت به عندما كنت طفلا . اعود لأحضن باهدابي رخامها المليس ونافورتها المغنية ولأود لها بعض ما اعطتنيه في طفولتي ..

•

ولكن هل يمكن لعطائي ان يكون في مستوى عطائكم .

هل بوسع قصائدي ان تكون في مستوى القصائد المنقوشة على الغيم ، والصخر ، واجنحة العصافير ، ومساند الكروم في هذه المدينة التي هي اروع خيمة ظل يحلم بها مسافر .

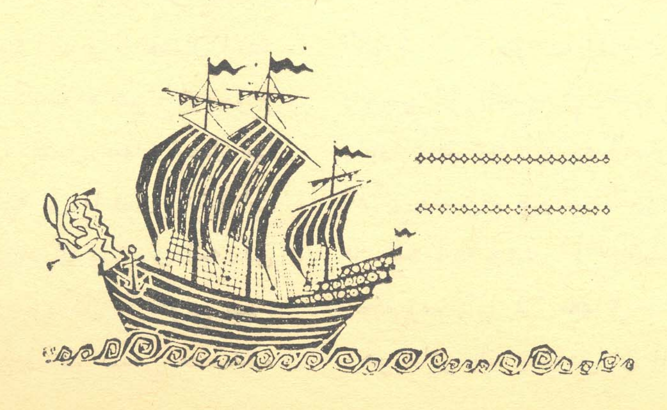
القيت اشعاري في مدن كثيرة . فلم يرتجف لي جفن .. ولم يحترق بي عصب . أما هنا .. أما هنا في زحلة فان الامر يختلف ..

كيف اعطي زحلة شعرا وهي الشعر كله ؟ وهل تحتاج الجنة الى غصن اخضر يضاف اليها ؟ هل تحتاج العناقيد المجوهرة الحبات الى اية حبة جديدة ؟ وهل يحمل الشارب معه الخمر الى الحانة ؟..

تلك هي المشكلة التي عذبتني وانا في طريقي اليكم . مشكلة ماذا أهدي لزحلة ؟ فالرجل عندما يفكر في ان يهدي حبيبته عقدا أو شالا أو قارورة عطر يرضيه ان يعرف ان حبيبته لا تملك هذه الاشياء .. أما الحبيبة الجميلة التي ازورها اليوم فلديها كل اشياء الجمال وفي خزائنها كنوز من الطيب والكحل والحرير ترهق مخيلة الرجل .

انني اعرف ان زحلة مدينة اسطورية تنام على الحرير وتصحو على الحرير .. وان الف فارس ينتظر تحت شرفتها المقمرة ..

ومع هذا .. فقد حملت هديتي وجئت . عل الاميرة ذات الشرفة المقمرة والعينين القزحيتين تفتح بابها لتسمع استغفاري .. وتقبل اشعاري .



فيلسوف الفريكة

فنوعب

بقلم الدكتور جميل جبر

ما حاول الريحاني ان ينشىء مذهبا فلسفيا خاصا ، متماسك التركيب ، متجانسا ، يتطرق لحل مشكلة كونية او حياتية معينة على طريقة جديدة ، انما كانت له نظرات فلسفية ، كسائر حكماء الشرق ، مبعثرة في آثاره ولا سيما « الريحانيات » ، يكون مجموعها نواة مذهب انتقائي فيه من الرواقية شيء ومن تقدمية الانسيكلوبيديين شيء ومن عملية رينان شيء ومن الحلولية الطبيعية اشياء . اضف الى كل هذا اختباراته الخاصة والجوين الاميركي والشرقي اللذين عاش فيهما وتأثراته بداروين ونيتشه وغاريسون وامرسون والبروتستنتية المتحررة .

الحلولية الطبيعية التي يدين بها الريحاني هي ، في خطوطها الكبرى ، تلك التي نشأت في المدرسة اليونية مع هيراكليت ثم تولتها المدرسة الرواقية مع رينون الى ان طورها شلينغ وروسو ورينان . انها تقول بان الكون هو الحقيقة وان الله ليس الا قوة تلازم الطبيعة وتحركها بل هو روح الكون ينمو دواما وبنموه تنشأ الكائنات طرا .

يقول الريحاني فيما يقول : « شعرت بان روح الوادي قد اتحدت بي وروحي قد اتحدت بالوادي ... ايحاذر ابن الطبيعة امه ؟ » « هل الحجر الذي يتأجج تحت هذه الصفحة الحديدية منفصل عن القوة الشاملة المتفرعة في كل اجزاء المادة ؟ ... » أيكون في الكون قوة منفصلة كل الانفصال عن قوة اخرى ؟ نعم ان المادة تتجزأ ، ولكن حرك فيها القوة الكامنة . فترتج وتتموج وتتأجج وتعود الى الفروع التي تنفصل عنها وتتصل بها من البدء » « التأمل يسمو بصاحبه الى ما فوق الدنيويات ويعقد بين خالقه وبينه ذاك الاتحاد الذي تتوق اليه كل نفس بشرية سامية » « اني ارى في كل ما حولي من الطبيعة شيئا من الجوهر الالهي الذي نسمي مصدره الاصلي الها او خالقا ... وكلما درس الحكيم الطبيعة قرب من الناموس الرئيسي السائد في كل جزء منها ، وهذا الاقتراب من الناموس هو ما اسميه اتحاد الانسان مع خالقه » « ما هو الاتصال السري بين روح الاشجار وروح الشعراء والانبياء . انا للطبيعة وانا اليها راجعون ».

ان هذه النظرات المنثورة في الريحانيات نثرا عفويا تنم عن محاولة تأليفية لاواعية بين مختلف وجوه التصوف في نطاق الحلولية الطبيعية ، اي بين نظرية الاتحاد التي عبر عنها البسطامي ونظرية الحلول التي قال بها الحلاج ونظرية وحدة الوجود التي تغنى بها ابن عربي وذلك من ضمن الطبيعة الازلية الام التي تساوي وتوحد بفضل قوة مستترة فيها بين شتى كائناتها فلا تميز بين كبير وصغير او بين انسان وحيوان ونبات .

« السير في شوارع المدن الكبرى يذكر الانسان بالانسان . واما السير في الوادي او الغاب فيذكر السائر بالخالق العظيم . الاول يدعو الى العمل والثاني الى التفكر والتأمل . في الاول بعض اللذة التي يتبعها الاعياء والقنوط وفي الثاني نوع من اللذة الذي يتبعه النشاط والعزم وحسن المآل ، يمشي المتنزه في شارع من شوارع باريس او نيويورك فيدهشه ازدحام الناس وتنقبض نفسه من الضجيج ويتبلبل فكره مما يراه وراء زجاج النوافذ الكبيرة من مصنوعات الانسان ومن التحف والعاديات . ويمشي ابن الطبيعة في الغاب بين الادغال وتحت الاشجار وادواح فتنعشه روائح الصنوبر ويسكره ارج الارض الذكي الممتزج بروائح القويسة والبطم والغار . فيخرج من بيت امه وقد ملىء نشاطا وعزما وسرورا وعلى الخصوص اذا كان معها في ساعة تهيجها . يخرج اذ ذاك وهو شاعر بانه يستحق ان تعامله الطبيعة معاملة مثيل لها

بل معاملة أحد أعضائها المتساوين امام الناموس الشامل الدائم الذي لا يبطل من اجل الاغنياء ولا يلغى من اجل الملوك والامراء .

وهكذا خرجت من الوادي بعد ان قضيت فيه بضع ساعات . خرجت بعد ان تصفحت فصلا طويلا من كتاب اميرة المنشئين وربة الكتاب . »

الا ان الحلولية الريحانية تأبى ان تكون سلبية سكونية تولد في الانسان خمولا وتعلمه الهرب من الحياة وتبعاتها كتلك التي يؤمن بها البوذيون والبراهمة مثلا . انها حلولية ايجابية فاعلة ملقحة بالرواقية التي تعلم عظم الهمة والصبر على الشدائد والنظر الى الامور السارة والمحزنة بعين هادئة وقلب مطمئن .

« في كل الفلسفات القديمة والحديثة ماوجدت اصلح من فلسفة الرواقيين . منشئها زينون الكنعاني . فان فيها من المنبهات العقلية ، والمقويات الروحية ، ما لا نجده في الحقائق التي نتلقنها اليوم . انها تعلمنا الواجب الذي لا يتعدى العمل به اللازم المفيد . وتعلمنا عظم الهمة والصبر على الشدائد . وتعلمنا ان ننظر الى الامور السارة والمحزنة بعين هادئة وقلب مطمئن . وتحبب الينا الفضيلة حبا بها . لمذهب زينون الفضل الاكبر في عظمة روما وبأس ابنائها . انه مهد رجالها العظام من قادة وسياسيين وفلاسفة وقياصرة . »

من خلال هذه الزاوية الحلولية الخاصة يمكننا ان نستشف نظرة الريحاني الى الله والدين والحقيقة والانسان والمجتمع .

اما الله فهو ، في عرفه ، جوهر ازلي سرمدي ينبعث منه جوهر الحياة التي تظهر في الارض انواعا واشكالا فتتدرج الى الانسان بما فيه من عقل وضمير وادراك تميزه عن الحيوان ، انه عالم بكل شيء ، منزه عن الخطأ قادر على كل شيء . عنده علم بالغيب ، وبيده زمام الحياة والاكوان ، وهو رب جميع الاديان على السواء .

واما الدين فلازم للانسان وواجب عليه ، حقيقته الكبرى واحدة لا تتغير رغم كثرة العقائد وتضاربها . الحقيقة تجمع والعقائد تفرق . الحقيقة الهية ازلية والعقائد زمنية زائلة . ولا ضرورة لوسيط بين الانسان وربه ، والدين بجوهره ، هو الوعي الروحي بين الانسان والملكوت الاعظم مصدر الحب والحنان والعافية والجمال . وما المسيحية والاسلام والبوذية سوى اثواب مختلفة لعقيدة واحدة في الاساس فالطقوس والتقاليد التي تبعد الشقة فيما بينها ان هي الا انحرافات ينبغي نبذها لانها تورث التعصب آفة الافات .

من هنا كانت الصلاة او التأمل الصلة الوحيدة التي تسمو بالنفس الخالدة نحو خالقها ، انها تجسد اعجاب الانسان المحدود في ذلك الكيان الالهي غير المحدود لا وسيلة روحية للتوصل الى شيء مادي ودنيوي مبتذل وهذه هي الخطوط الكبرى في صلاة الامين المعروفة بالنجوى .

« ابانا الذي في السموات كن معي في الحياة وفي الممات . انزدتني قوة فزدني يارب تواضعا . وان زدتني علما فزدني حلما . لا تمت في فضيلة لتحيي في اخرى . انت يا رب خلقتني لاعيش حرا كالطير ، خلقتني لاعيش اولا لنفسي وثانيا لاخي في الانسانية ولم تطلب من ابنائك ان يقدموا للعظيم منهم ضحية بشرية . انت منحتني عقلا لافكر فاذا فكرت فلا تلمني . خذني بحلمك الواسع يا رب واذا صرخت من سويداء الفؤاد طالبا منك الرحمة لعبادك في ارضك فاستجب يا رب طلبتي ... بدد امامي غيوم الحيرة وارسل علي نور اليقين . وان كنت قد اخطأت في اسئلتي . ان كنت قد كفرت في صلاتي فاني تائب اليك . »

اما الانسان ، في نظر الريحاني ، فليس آدميا ساقطا ، بل كائنا بدائيا يحسنه المجتمع دواما بفضل التقدم فيتجاوز ذاته باستمرار حتى يبلغ المستوى الاعلى . فالامين وان آمن كروسو بصلاح في الانسان فطري فانه لا يرى ان المجتمع يفسد الانسان ، بل على العكس يرى انه يطوره ويرقيه شرط ان يحيا الحياة الحقة الجديرة به ، تلك الحياة « التي تجمع بين محاسن فلسفة الروحيين وفلسفة

المادين . وهي التي يشارك صاحبها ابيقور في لذاته وسقراط في ادراكه وحكمته وافلاطون في روحياته . هي التي تعظم فيها قوة الجسد وقوة العقل وقوة الروح . هي التي تنتظم اول درجات سلم الحياة وآخرها من الحيوان حتى الملاك .

والانسان الا مثل رجل المستقبل هو ذاك الذي تكتمل فيه جوانب الحياة كلها وتتساوى صحة وفهما ورقيا فيتمكن من الجمع بين محاسن الجسد والعقل والروح بل هو ذاك الذي يعيش في الحاضر كما لو كان الحاضر الابدية كلها وهو الذي لا يعول في اموره على احد ولا يحترم في البشر الا العلم والذكاء والصلاح ولا يحابي في سبيل الحق احدا . هو ذاك الذي يعيش لنفسه ولربه وللانسانية في وقت واحد .

وكان لا بد لمثل هذا الرجل العظيم مدينة عظمى كجمهورية افلاطون المثلى ومدينةالفارابي الفاضلة . وقد تصور الريحاني هذه المدينة فردوسا آمنا يسير فيه الذئب والحمل متحابين متآخين ويرتاح فيها الناس من شرور المفترين على الله وانبيائه القابضين على صولجان الخرافة المتوجين بتيجان الجهل والتعصب والطغيان ويسود فيها العلم والحرية والعدل والوفاء وتنتصر فيها قوى الروح والعقل على القوى المادية فيتحول عتاد الحرب معاول ومناجل وتشاد فيها الصروح والمتاحف .

ان الانسان المتفوق ليحتاج الى مدينة متفوقة ايضا تكون نموذجا مصغرا للمجتمع الديموقراطي الصحيح المرتكز على مبادىء الثورة الفرنسية التي تشبع منها الامين . والحرية التي يسعى اليها فعليه اكثر منا لفظية اذ ما ينفع السجين ان يبدل بثوبه المخطط ثوب الرجال الاحرار اذا ظل راسفا في سلاسل الحديد مسجونا في غرفته المظلمة او اذا ظل يشتغل مع بنيه الصغار تحت الارض محروما من الهواء النقي والنور وجمال الفضاء . اي انه لا يؤمن بحرية لا تهيأ لها الطاقة الكافية لتحققها ، لا تتاح لها العدالة الاجتماعية في مفهومها العميق .

ان المدينة المثلى التي يريدها الريحاني ترتكز على غير الطمع والاستثمار وعلى غير الشرائع التي « يسنها اربات المال ويطبقها سماسرة البورس واصحاب المعامل وينشرها وزراء الحربية بالمدافع والمدرعات . »

تلك هي اهم نظرات الريحاني الفلسفية وهي كما رأيت ابعد من ان تؤلف بحثا منهجيا متسلسل المنطق ، مترابط المضمون . انها الحكمة الشرقية التي تأبى ان تتمذهب حتى ولو صيغت في قوالب ديناميـة مستحدثة ومن بوتقة الغرب .

من مكة إلى مكة

تنوعي

بقلم : خليل هنداوي

الاشخاص :

جعفر

سمية

النجاشي

ابو جهل

ابو سفيان

العباس

المكان :

المشهد الاول والثاني في ارض الحبشة بقية المشاهد في مكة .

الزمان :

المشهد الاول والثاني في الهجرة الاولى الى الحبشة

المشهد الثالث ليلة الهجرة

بقية المشاهد في يوم فتح مكة .

(المشهد الاول)

قافلة في صحراء ... ظمأ ، رمال تقذف ، ورياح تلفح ...

(جعفر وزوجته)

سمية ـ آه يا آلهي . اما لهذا الدرب من آخر ؟

جعفر ـ رويدك يا سمية . قليلا ما تنكشف الغمة ...

سمية ـ كم مر علينا من ليال . نقطع فيها هذه المفازات المهلكة .

جعفر ـ أيتسرب الشك الى ايمانك ؟

سمية ـ معاذ الله والاسلام ان يتسرب الشك الى نفسي ... انني مسلمة حقا . انني مؤمنة صدقا ولولا الايمان لما خرجت من داري راضية ... أتحمل واولادي الغربة والشتات وعذاب المستقبل .

جعفر ـ بوركت امرأة ... ان هذا العذاب هو اقل ما نتحمله من اجل عقيدتنا . هل تظنين أن أصحاب العقائد يجدون السبيل الى عقائدهم سهلا ؟ كم من مرارة ذاقوها . وكم من خيبة تحملوها ... ولكن حلاوة العقيدة فوق كل شيء ...

سمية ـ أتجد لنا اجرا مضاعفا في هجرتنا هذه ؟

جعفر ـ ولم لا ؟.. وقد خرجنا من ديارنا خالين الا من عقيدتنا ... وقد رضينا بالله ورسوله وبالاسلام نصيبا ...

سمية ـ وهل تعتقد بأننا قادمون على عيشة هادئة ، تحفظ فيها عقيدتنا وحياتنا ؟

جعفر ـ اننا قادمون على بلاد الحبشة ... وفيها ملك عادل رحيم اذا سمع قصتنا فلا بد ان يعطف علينا .

سميه ـ اهو على عقيدتنا ؟

جعفر ـ انه ذو عقيدة سامية انسانية ... ولذلك سيفهم روح عقيدتنا ويعطف علينا .

سمية ـ وهب أن جماعة من قريش استبقوا اليه ، وأفسدوا علينا اقامتنا عنده .

جعفر ـ لا أدري . انهم يفعلون ذلك ... واذا فعلوه فلن ننسى ان نطلب حمايته . وهو ملك لا يظلم عنده احد . وأرضه أرض صدق .

(الريح تشتد)

سمية ـ أدركنا القافلة ... فان العجاج يكاد يخفينا عنها . يا لها من قافلة هزيلة !

جعفر ـ بل قولي : يا لها من قافلة كبيرة بقلوب اصحابها ، وصدق عقيدتهم . أليس بكبير من يعمر صدره اعتقاد فيطغى على قلبه وجوارحه ؟.. فاذا ما طلب اليه ان يتزحزح عنه شد على اعتقاده ، وخرج به يصونه ، لانه عنده صار كل شيء ...

سمية ـ لله ما تفعل العقائد باصحابها !

جعفر ـ أنسيت الرسول الآن في منعطفات مكة يجهر باسم الله ، وقومه يقذفونه بالشوك ، ويرشقونه بالحصا . كلما ازدادوا منه نفورا ازداد منهم قربا ... انه يرجو ان يهديهم الى سواء السبيل ...

سمية ـ ليتنا بقينا بجانبه لنزيده عزما . ما أحوجه الآن الى رفيق !

جعفر ـ ان لديه اصحابا ما أقلهم عددا ، وما أكثرهم عزما .

سمية ـ ولماذا اختصنا وحدنا بالهجرة ؟

جعفر ـ انه خشي على النساء والاطفال أذى طواغيت مكة .

سمية ـ ربنا يسر لنا عودة سريعة تجمع شملنا ، تظهر عقيدتنا . وداعا يا أرض مكة !

جعفر ـ لا تودعي أرض مكة . ان ارضها معنا . ان ريحها في دمنا . عقيدتنا وما فيها يجعلنا نلتفت اليها دائما ... انها مكة المؤمنة ... لا مكة المشركة . انها مكة محمد ، لا مكة ابي جهل ولا أبي لهب ...

سمية ـ الى اللقاء اذا بأرض مكة !

جعفر ـ لن يكون اللقاء بمحمد الا على بطائحها ... سيري ايتها القافلة ... ان لك معادا ليس ببعيد .

(المشهد الثاني)

الوصول الى ارض الحبشة ... ونزولهم عند النجاشي ..
(جعفر بن ابي طالب داخلا على النجاشي)

النجاشي ـ ليدخل هذا العربي !

جعفر ـ (داخلا) السلام عليك ايها الملك .

النجاشي ـ لعلها تحية جديدة .

جعفر ـ هي تحية الاسلام .

النجاشي ـ من أي ارض انت ؟

جعفر ـ من مكة نفسها ...

النجاشي ـ مكة ... وهل لا تزال مكة تختال بأوثانها .

جعفر ـ انها عابدة لهم .

النجاشي ـ بئست العبادة لغير وجه الله . وانت ماذا تعبد ؟

جعفر ـ اتبعت انا واهلي شريعة نبي جديد ...

النجاشي ـ ما اسمه ؟

جعفر ـ محمد ...

النجاشي ـ وما كان من أمر قومه ؟

جعفر ـ ثاروا عليه من كل جانب . فكذبوه ، وآذوه ، وهو يحتمل الاذى والعنت في سبيل تبليغ رسالة ربه ..

النجاشي ـ ولماذا فررتم من جهاده معه ؟

جعفر ـ لم نأت فرارا ... ولكنه أشفق علينا ... وامرنا بالهجرة .

النجاشي ـ الى أرض الحبشة ؟

جعفر ـ نعم ، الى أرض الحبشة ... وقال لنا : ان بها ملكا لا يظلم عنده احد ، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما انتم فيه ...

النجاشي ـ يا له من كلام طيب . ما أسعدني بان لم يظلم احد عندي ، ولن يظلم ... العدل اساس الملك ... وما اسم دينكم هذا ؟

جعفر ـ الاسلام ...

النجاشي ـ الاسلام ؟ ما أعظم ان يسلم الانسان وجهه لله ... وهل للاسلام من اصنام ؟

جعفر ـ انه لا يعترف باي صنم يعبد . ولا يعبد الا الله .

النجاشي ـ حسنا ... هذه عقيدة لا تختلف مع عقيدتنا ... لا أرى رجلكم الا نبيا ...

جعفر ـ ليتك تسمعه وهو يعظ قومه . ان لكلامه نغمة موسيقية عذبة . وان لقوله قوة السماء . رقة وقوة تآلفتا في هذا الانسان . رآه الراهب « بحيرا » فلم يعد الا ان قال : ان له شأنا عظيما .

النجاشي ـ لقد ضل قوم طلبوا الي أن اسلمكم اليهم . انكم في كنفي ولن يكذب رسولكم في حسن ظنه بي .

النجاشي ـ انه ، ولا ريب ، لأنسان عظيم . قدم لكم خيرا كثيرا .

جعفر ـ ايها الملك . كنا قوما اهل جاهلية ، نعبد الاصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ويأكل القوي منا الضعيف ، حتى بعث الله الينا رسولا نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، فدعانا الى الله لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان ، وحسن الجوار ، والكف عم المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل اليتيم وامرنا ان نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ...

النجاشي ـ والله ، ان هذا القول ، لا يقوله الا نبي أعطي الناموس .

جعفر ـ ولكن قومنا عدوا الينا فعذبونا ... فلما قهرونا وظلمونا خرجنا الى بلادك ، واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا الا نظلم عندك ايها الملك .

النجاشي ـ لا وربي ، لن تجدوا ظلما عندي . ما أسر نفسي بهذا الحديث الذي عشت دهرا طويلا لأسمعه يتردد في بلاد الاوثان . لو لم يكن النجاشي الا أن يسمع مثل هذا لكفى ...

لقد ضل قوم طلبوا الي ان أسلمكم اليهم لانكم فارقتم دين قومكم . انكم في كنفي وجواري . ولن يكذب رسولكم في صدق ظنه بنا وارضنا ... انطلقوا في ربوع الحبشة آمنين حتى يجعل الله لكم فرجا ...

جعفر ـ ما أعدلك ايها الملك !

النجاشي ـ وانت ، ايها الحاجب ، تول هؤلاء القوم بالعطف والمعونة ... وقل لمن جاء خلفهم من قومهم ان الملك أجارهم ، ولا سبيل اليهم ما داموا عندنا ...

جعفر ـ حق ما قاله رسولنا الكريم ، ان في ارض الحبشة ملكا لا يظلم عنده انسان ...

(المشهد الثالث)

(لغط وضوضاء ....

(ابو سفيان ، وابو جهل وفريق

(من اشراف قريش .

ابو جهل ـ الى متى تسكت قريش على هذا الغلام الذي يسفه آلهتها ... ويغوي فتيتها .

ابو سفيان ـ اني ، وهبل ، كأني به قد تبعه السفهاء منا ، وشدوا أزره ، وانصبوا على مكة كقطيع انسيل ...

١ ـ ألا شتتوهم ، واذيقوهم النفي والتشريد كما اذقتم من قبلهم ممن هاجروا الى الحبشة .

٢ ـ ان هذا الرجل قد كان من امره ما قد رأيتم فانا والله ما تأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأيا .

١ ـ احبسوه في الحديد ، وأغلقوا عليه بابا حتى يأتيه الموت ...

٢ ـ لا والله ما هذا لكم برأي ، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن امره من وراء الباب الذي اغلقتم دونه الى اصحابه . ما هذا لكم برأي .

١ ـ نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا . فاذا اخرج عنا فوالله ما نبالي اين ذهب ولا حيث وقع .

٢ ـ لا والله ، ما هذا لكم برأي . الم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به ؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم ان يحل على حي من العرب ، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يبايعوه عليه ، ثم يسير بهم اليكم حتى يطأكم في بلادكم بهم ، فيأخذ امركم من ايديكم ثم يفعل بكم ما اراد . دبروا فيه رأيا غير هذا .

ابو جهل ـ والله ان لي رأيا فيه ما اراكم وقعتم عليه .

١ ـ ما هو يا ابا جهل ؟

ابو جهل ـ ارى ان نأخذ من كل قبيلة شابا فتى جليدا نسيبا فينا ، ثم نعطي كل فتى سيفا صارما ، ثم يعمدوا اليه ، فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فنستريح منه . فانهم اذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعا .

(الجميع) ـ القول ما قال الرجل ... هذا هو الرأي ... لا رأي فيكم سواه .

ابو جهل ـ سيوفكم ... لا يشعرن أحد بكم !.. انصبوا على داره ...

١ ـ ادرعوا الليل ... لايظهر بريق سيوفكم ..

٢ ـ ها هو ذا محمد نائما ...

١ ـ عليه بردة ••• انزعوه عنه • واضربوه ضربة رجل واحد •

٢ ـ ليس ذا بمحمد ••• انه الغلام ••• انه علي •

١ ـ لقد هرب محمد من مكة •••

ابو سفيان ـ كما هرب أتباعه من قبل الى أرض الحبشة •••

ابو جهل ـ لعله قصد ابا بكر ••• أحدقوا ببيت ابي بكر •

ابو سفيان ـ ارصدوا مئة ناقة لمن يرده علينا •

ابو جهل ـ ارصدوا الرجال • واملكوا المسالك عليه • ان شرا كبيرا يكمن الآن في مكة •••

ابو سفيان ـ بالأمس هاجر صحبه الى الحبشة ، واليوميهاجر هو نفسه ••• يالها من نبوة تضعضعت ••• انه لن يرى مكة ثانية •••

صوت غلام ـ بل يراها ••• وستعلمون عقباها •

(المشهد الرابع)

العودة الى مكة ••• الهجرة من مكة •••• الى مكة •

المسلمون يتدفقون على مشارف مكة •

العباس ـ ابو سفيان

العباس ـ ويح نفسي • من أرى ؟ في مثل هذا اليوم ، وفي مثل هذه الساعة ، وعلى مثل هذه الارض ؟

ابو سفيان ••• الآن امكنني الله من عدوه •••

ابو سفيان ـ ها جئتك مستشفعا ، وقو ضاقت علي الارض بما رحبت ••• ذهبت الى المدينة فلم يستشفع لي احد ، ولم يجرني انسان ••• ذهبت الى ابنتي زوجة الرسول فطردتني من المقعد الذي جلست عليه •••

العباس ـ الآن جئت مستشفعا ؟ حين رأيت جيوش المسلمين احاطوا بمكة ؟ حين رأيت المهاجرين والانصار ينصبون عليها من كل جانب •

ابو سفيان ـ أولست بمثلي حديث عهد بالاسلام ؟ الم تكن معنا على ابن اخيك ؟

العباس ـ اناظر معي ـ الآن ـ الى هذه الكتائب ؟• كل كتيبة تتصل بقبيلة ••• لقد أعز الله اليوم محمدا والاسلام •

ابو سفيان ـ والله ، يا عباس • لقد اصبح ملك ابن اخيك اليوم عظيما •

العباس ـ يا أبا سفيان لا تقل الملك • بل قل انها النبوة ••• النبوة المشرفة التي ستغمر العالم •

ابو سفيان ـ نعم ، وبعد •

العباس ـ النجاء بنفسك وقومك •

ابو سفيان ـ ولكن أنى لمكة ان تقابل العرب باحقادهم ؟

العباس ـ لا حقد في الاسلام ••• اننا امرنا بألا نقاتل الا من يقاتلنا ••• امرنا بالا نقتل في مكة احدا • هي حرام الى يوم القيامة ، فلا يحل لاحد يؤمن بالله ، واليوم الآخر ان يسفك فيها دما •••

ابو سفيان ـ ما أذل اليوم مكة في انكسارها !

العباس ـ بل ما أعظم مكة في انكسارها !•• انها انتصرت لآن ••• انها قبلة الاسلام التي قضت على كل عبودية ، وحطمت كل وثنية •

ابو سفيان ـ لهفي على الاصنام التي عبدناها •

العباس ـ وهل نعبد ـ الى الابد ـ ما لا يضر ولا ينفع • اليوم تحطم الاصنام كلها •

ابو سفيان ـ اني لأخشى ان ينتقم مني محمد ••• اذا رآني فلا بد ان يذكر •••

العباس ـ واذا نسي أنك ـ يوم احد ـ كنت تضرب في شدق حمزة بزج رمحك فهل ينسى ما فعلته زوجتك هند بكبد حمزة ••• وهي تلوكها غيظا وانتقاما •••

ابو سفيان ـ والله ، اني ما نسيت ذلك كله ••• فهل تراه يغفر لي عداوته •

العباس ـ اذا دخلت الاسلام •

ابو سفيان ـ أليس من دون هذا منصرف لي ؟

العباس ـ الا تزال على ضلالك القديم ؟

ابو سفيان ـ انني أسلم على يديك ••• وأردد شهادتي بألا اله الا الله •••

العباس ـ وان محمدا رسول الله •

ابو سفيان ـ (بتردد) وان محمدا رسول الله ••• هل تراني الآن ناجيا من سيوف اهلك ؟

العباس ـ المحبة وحدها اليوم تملك القلوب • والعفو قبل الانتقام •

(نداء)

ابو سفيان ـ اسمع معي هذه الاصوات :

أصوات : (اليوم يوم الملحمة ••• اليوم تستحل الحرمة ••• اليوم أذل الله قريشا •)

أبو سفيان : أتريدونها ملحمة شديدة في مكة • والله ، لئن كانت فلن تقوم لقريش بعدها قائمة •

العباس ـ ويح المنادي بالشر ! ان محمدا لن يفعل الا خيرا • اسمع ندائي واسمع القوم •

(اليوم يوم المرحمة ••• اليوم يعظم الله فيه الكعبة ،

اليوم تكسى فيه الكعبة •••• اليوم أعز الله قريشا •

اذهبوا فانتم الطلقاء • لا شر ولا عدوان • من دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ••••

ابو سفيان ـ فداك ابي وامي • اخ كريم ، وابن اخ كريم • أدرك بي الرسول ليعطيني الامان •

العباس ـ اركب اذا في عجز دابتي حتى آتي بك رسول الله فأستأمنه لك ••• انه راكب على ناقته القصواء •••

(ضجيج وصهيل) (صوت يقرأ قوله تعالى)

(اذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا •••)

العباس ـ صدق الله العظيم (انه هو الفتح الجليل الذي وعده به ربه ••• لقد اخرجنا اتباعه من مكة ••• وشتتناه ، وشتتناهم تحت كل كوكب والآن عادوا الى مكة •••

ابو سفيان ـ واخيرا من مكة ••• الى مكة ••• يا لأعاجيب القدر • (لا ينقطع الضجيج)

(المشهد الخامس)

(سكنت الحالة في مكة ••• وهدأت الحياة ••• وقد اقام الرسول فيها خمسة عشر يوما ••• وقد تهيأ الآن للرحيل عنها ••• وفي خلال ذلك تعود القافلة الاولى التي تحملت الهجرة الاولى في سبيل عقيدتها الحية •••)

العباس ـ وابو سفيان

صوت ـ لقد عاد مهاجرو الحبشة ، ومعهم هدايا النجاشي رأس الاحباش •

ابو سفيان ـ ما اكثر عددهم ! وقد كانوا قلة ••• لقد تكاثروا في تلك الارض •••

ما كان أشد سرور النبي بعودتهم •

العباس ـ ان سروره بهم لايقل عن سروره بالفتح•

ابو سفيان ـ لقد قبل الرسول بين عيني جعفر •

العباس ـ لكن جعفرا عاد وحده ••• لم يقدر لزوجته ان ترى مكة مرة ثانية ••• لكنها أقسمت عليه ان يشم ترابها عنها اذا رجع حيا اليها •••

ابو سفيان ـ ها هو جعفر يمر بنا •

جعفر ـ هذا انت ••• يا أصل الكفر •

العباس ـ لكن الاسلام جب ماضيه كله •••

جعفر ـ حقا ••• لقد قطع الاسلام ما كان بيننا من عداوة • كم تذوقنا !•• وكم تشتتنا !

العباس ـ من كان يظن أنكم تعودون ؟

جعفر ـ لقد عرفنا اننا عائدون الى مكة ••• مذ أخرجنا قومنا من مكة ••• وها نحن خارجون منها •••

ابو سفيان ـ الى أين ؟

العباس ـ هل اعتزم الرسول مغادرة مكة •••

جعفر ـ الى المدينة •••

ابو سفيان ـ وما يصنع في المدينة ؟

جعفر ـ سيتخذها مقاما له •

ابو سفيان ـ ومكة ؟ ما حالها ؟ لماذا لا يتخذ مكة منزلا له ؟

جعفر ـ ان أرض المدينة تدعوه اليها ••• ان حنينا خفيا يدعوه اليها ••• انها الارض التي ولد عليها النصر •

ابو سفيان ـ ولكن العرب لا تدين الا ••• لمكة • مسقط رأسه ••• ومبعث رسالته •

جعفر ـ ان الرسول سيعود الى المدينة ••• وفاء لها • ان رسالة مكة انتهت بأنها أطلعت مشرق النور ••• والمدينة تريد أن تضم هذا النور •••

وداعا يامدينة المولد • ويامدينة البعثة والاشراق • يا مدينة القوة والنبوة ••!



شعر : سليمان العيسى

ألقيت في أمسية الفولكلور الجميلة التي أقامها معهد القلبين الاقدسين حيث يعلم الشاعر ..

(١)

قدميني ..
لحكاياتي القدامى
شاعرا .. يعرفه الدرب غماما
يزرع الأفق شرر
يعصر الليل سحر ..
ويقولون :
انتهى في شفة الجيل قصيدة
مرة الجرح .. خضيدة ..
واسأليني .. يا أمل(١)
عن بقايا من جناح النسر ..
عن لحن الأزل
اسألي الريح شظايا حملتني .. وحطاما
هل تبقى في زوايا الكأس شيء للندامى ؟

. . .

(٢)

قدميني ..
فوق درب العمر .. ريشا في الرياح
كان بالامس ـ وما زال ـ صديقا للصباح ..
صب يوما كل عرف فيه حرفا ..
يمسح الجرح .. ولا يلوي على الطعنة طرفا
ويرى في العتمات السود
نهرا للضياء ..
للسماوات ..
لزهو الكبرياء ..
قدميني يا أمل
لجراحاتي الاول
ودعيني .. أنحر الصمت .. وغفران الخزامى
والهوى .. ينهض في جنبي حطاما ..
ويغض الشعر ..
غصات سؤال يترامى :
هل تبقى في زوايا الليل شيء للندامى ؟

. . .

(٣)

من غيابات السكون المر ..
من كبر انطفائي
من وقوفي فوق جرحي ..
يمضغ اليأس عيائي
من كهوف الألم
لز بالجرح دمي
أرفع الآن الضمادا ..
أحمل الطعنة زادا ..
وأغني للمساء الحلو ..
للشهب النثيره
لفراشاتي الصغيره
قدميني يا أمل ..
لو فقدنا في الدروب السود أنفاس الشعل
وارتمينا للملل

للدجى يرهقنا
للظما يحرقنا
بقيت في آخر الصحراء قطره
ظل خلف الكرم عنقود وزهره
بقيت فيروز ..
موالا .. وسكره .

. . .

(٤)

قدميني .. يعرف السمار أقداحي العتيقة
يعرفون الصوت ، والشعر ، صديقا وصديقه
غبت عنهم .. وتمنوا لو مرق
ليلنا .. من غير جرح ، وأرق
يعرف السمار أني لهم ..
لك يا أرضي الهوى والنغم ..
يعرفون الشاعر النشوان .. يصطاد الزحاما .
ليغنيه رعودا ، وبروقا تترامى
تعصر الليل سحر
تجدل الأفق مطر
لم اكن يوما بعيدا عن فؤاد
خفقت فيه حياة من بلادي
وأعود الآن ..
غفران الحكايات القدامى !
أحمل الكأس رمادا ، وشظايا ، للندامى ..

. . .

(٥)

أي سحر للوجود الرحب ، لليل الندي ؟
للكروم الخضر ، للعنقود ، للنبع الصدي ؟
كيف يروي قصة الحب ، وأخبار الغزل ؟
كيف يخفي الموعد المسروق خطفا ، والقبل ؟
كيف يحلو السمر ؟
ويضيء القمر ؟
ان تخلى عنه شاعر
واختفت حنجرة تملأ بالخصب البيادر !
أي معنى لليالي الأرقه
لثواني العمر نطويها قيودا مرهقة ؟
نحن يا فيروز
سحرها المكنوز
واسألي السمار عنا والندامى
كم سقيناهم !
فما كلوا ..
ولا ملوا المداما ..

. . .

(٦)

افتحي يا فجرنا ، بابدعة الله ، الكوى
واملأي الدنيا تسابيح ، وشعرا ، وهوى
ألعزاء الحلو .. ان أجدب في العمر العزاء
نغم صلى له الصبح .. وفداه المساء
لو فقدنا في دروب العمر أنفاس الشعل
لو تمزقنا عياء .. وكلل
وارتمينا .. للملل
للدجى يرهقنا ..
للظما يحرقنا ..
بقيت في آخر الصحراء قطره
ظل في البستان عنقود وزهره
بقيت فيروز ..
ميجانا على الليل .. وسكره .

---

(١) احدى تلميذات الشاعر . وكانت تقدم الأمسية .

حلب : سليمان العيسى
في ٨ حزيران ١٩٦٢

من ذكريات الاندلس

بقلم الدكتور خالد الصوفي

في احدى ليالي الربيع من سنة ٧١١ م ، وبينما كان الخليفة الاموي العظيم الوليد بن عبد الملك جالسا في قاعة من قاعات قصره الفسيحة في دمشق ، حمل له البريد كتابا من واليه في مراكش موسى بن نصير يستشيره فيه بأمر هام شغل ذهن الخليفة برهة من الزمن وجعله يتردد امام الجواب عليه ، لما رأى فيه من اقدام ومخاطره ، الا وهو اعطاء الاذن لواليه في المغرب بالاغارة على اسبانيا لفتحها وجعلها جزءا من الامبراطورية العربية التي كانت تشمل آنذاك معظم أجزاء العالم القديم .

كان الوليد يخشى على الجيوش الاسلامية من ان تزج بنفسها في مغامرة عسكرية في القارة الاوربية لاتعرف نتائجها ، ولذلك فانه أجاب موسى موصيا اياه الا يبدأ بالغزو قبل ان يختبر البلاد بالسرايا ونصحه باتخاذ الحذر الشديد والحيطة البالغة كي لا يقع في فخ يدبره له العدو .

اما عزم موسى على اجتياز المضيق الفاصل بين افريقيا واوربا واحتلال شبه الجزيرة الايبرية فقد تأتي له بالدرجة الاولى من رغبته في توسيع رقعة الامبراطورية العربية ونشر الدين الاسلامي في القارة الوحيدة التي لم يكن قد تسرب اليها الاسلام بعد وهي القارة الاوربية . ويظهر حسب رواية بعض المؤرخين أنه كانت تداعب خيال موسى بن نصير فكرة اجتياز جبال البيرنيه واحتلال فرنسا ومن ثم التوجه الى اواسط اوربا متابعا سيره الى البلقان فالقسطنطينيه حتى يصل الى دمشق بعد ان يكون قد أخضع اوربا بأكملها للحكم العربي .

لم يكن غزو اسبانيا مشروعا سهل التحقيق ، لان أقوام الغوط الغربيين كانت قد اسست لنفسها في تلك البلاد حكومة ثابتة قوية غنية ، بيد ان الظروف التي كانت تجتازها شبه الجزيرة الايبريه آنذاك ساعدت على انجاز مهمة العرب بنجاح وتوفيق ، فاستطاعوا الوصول الى اقصى شمالي اسبانيا ، مدة لا تزيد عن بضعة اشهر .

وكان من جملة الظروف المساعدة التي أتيت على ذكرها منذ قليل الحادثة التالية :

كان من عادة الاشراف في اوربا ارسال بناتهم الى البلاط كي يتلقين هناك دروسا في التربية الاجتماعية ويرين عن كثب حياة الطبقة الارستقراطية في بلادهم . وكان لجوليان اويوليان — كما تسميه الرواية العربية — حاكم مدينة سبته (وهي المدينة الوحيدة الباقية تحت حكم الاسبان على الشاطىء الافريقي) فتاة رائعة الجمال اسمها « فلورندا » ارسلها هو بدوره الى بلاط الملك رودريك كي تقضي فيه ردحا من الزمن كوصيفة للملكة . وقد استرعى جمالها ملك اسبانيا رودريك فشغلت ذهنه ولم يعد يستطيع التفكير الا بها ، فاخذ يتقرب منها شيئا فشيئا حتى توطدت الصلات بين الاثنين فاقدم حينذاك على اغتصابها ثم اعرض عنها . سمع والدها بالخبر فثارت ثائرته خاصة وانه كان من اعداء الملك السياسيين فصمم على الانتقام لشرف ابنته مهما كلفه ذلك غاليا . ومن اجل الوصول الى هدفه لم يجد حلفاء أقوياء يستطيع ان يستنصرهم ويستعديهم على مليكه الظالم سوى العرب ، فما عتم ان اتصل بالوالي موسى ابن نصير وعرض عليه مساعدته لغزو اسبانيا . وتذكر بعض الروايات في هذا الصدد ان الملك رودريك كان قد ارسل الى واليه يوليان في تلك الفترة يطلب منه ان يرسل اليه بعض البزاة والطيور فكتب اليه هذا ينبئه انه سيبعث ببزاة لا عهد له بها ابدا ولم ير مثلها قبل ذلك ، ويعني بذلك الفاتحين العرب .

كان هذا مما شجع موسى وجنده على وضع اقدامهم في اوربا والانسياح نحو الشمال .

أغلب الظن ان الحاكم الاسباني يوليان لم يقصد بدعوة موسى ان يمتلك العرب اسبانيا وان يحكموها بل كان مشروعه ان يستعين بالعرب على محاربة الملك المغتصب رودريك واسقاطه واستخلاص الملك لنفسه ولأنصاره .

على اي حال بدأ موسى بارسال حملة « صغيرة » استكشافية بقيادة طريف بن مالك نزلت في الجزيرة الخضراء وتأكدت من ضعف قوى الدفاع في الاندلس ومن صدق يوليان في حلفه للعرب . وحينذاك فقط قرر موسى تنفيذ مشروع الغزو .

سلمت قيادة الجيش الفاتح لطارق بن زياد حاكم مدينة طنجة آنذاك ومولى موسى بن نصير سابقا ٠ وقد استطاع هذا المولى الاسود بحفنة من جنوده لا يتجاوز عدد افرادها عشر الجيش الاسباني الذي اشتبك معه ان يخط في كتاب القدر صفحة خالدة من البطولة والجرأة والاقدام ٠

وقبل ان تبدأ المعركة عند نهر وادي لكه خطب طارق في جنوده خطبة تعتبر نموذجا بديعا من الفصاحة والحماسة الحربية اذا صحت نسبتها اليه ٠ بدأها بقوله :

« ايها الجنود : اين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو امامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر ، واعلموا انكم في هذه الجزيرة اضيع من الايتام في مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه واسلحته ، اقواته موفورة وانتم لاوزر لكم الا سيوفكم ولا اقوات الا ما تستخلصونه من ايدي عدوكم ٠ وان امتدت بكم الايام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم امرا ، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب عن رعبها منكم الجرأة عليكم ٠٠٠٠ الى ان قال : وقد بلغكم ما انشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان ، الرافلات في الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالقصبان ، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان ٠٠٠ وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك امير المؤمنين من الابطال عربانا ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهارا واختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ٠٠٠ الى ان قال : ايها الناس ما فعلت ما فعلوا مثله ان حملت فاحملوا ، وان وقفت فقفوا ، ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال ، فان قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ٠٠ الى آخر الخطبة ٠٠٠

ودامت تلك المعركة ثماني ايام انتهت بانتصار ساحق للعرب وقتل فيها الملك رودريك دون ان يعثر على جثته فيما بعد ، فنسج الاسبان الاساطير حول شخصيته وظلوا يرددون مدة من الزمن انه لم يمت وانه سيعود لينقذ البلاد من ايدي الفاتحين العرب ٠

بعد معركة نهر وادي لكه لم يلق العرب المسلمون صعوبات كبيرة في الفتح فاستطاعوا في بضعة أشهر ان يستولوا على سائر المدن الاسبانية ووصل طارق الى اقصى الشمال فرده عباب المحيط عن التقدم فعاد الى طليطله حيث تلقى اوامر موسى بوقف الفتح ٠

لن اتابع هنا كلامي عن تطور الحكم العربي في اسبانيا لانه لا مجال لاستعراض ذلك الآن وانما اريد ان اخلص الى القول بان العرب بعد ان توطد ملكهم في ربوع اسبانيا واختلطوا باهل البلاد المفتوحة وامتزجوا بهم امتزاجا تاما عن طريق التزواج والتقارب والتجارة والثقافة ٠٠٠ انشأوا في تلك البلاد حضارة مزدهرة رائعة فاقت كل حضارة اخرى في العالم آنذاك ٠

ان الدولة العربية التي اسسها موسى وطارق في اسبانيا والتي ثبت اركانها فيما بعد ابطال من الولاة امثال السمح بن مالك الحولاني وعبد الرحمن الغافقي ويوسف بن عبد الرحمن العهزي والتي وصلت الى اوج عزها ومجدها وازدهارها في عهد خلفاء عبد الرحمن الداخل الاموي ، ان هذه الدولة العربية في اسبانيا هي التي نقلت الى الغرب حضارة العرب وهي التي سمحت للاوربيين بالاطلاع على الكنوز العلمية العربية والاغتراف منها ومحاولة تقليدها دون ان يتوصلوا الى ذلك حتى اوائل عصر النهضة في القرن السادس عشر الميلادي ٠

لقد شغل امراء العرب الاولون في الاندلس عن البناء والعمران والزخرفة باخماد الثورات وتوطيد الحكم ولكن ما ان وصل عبد الرحمن الداخل وانتصر على الصعوبات التي كانت تواجهه واسس ملكا ثابتا له ولاحفاده من بعده حتى اتبع سياسة البناء والعمران وتشجيع العلم والادب ، فكان من اروع مآثره بناء الجامع الاموي في قرطبه ، هذا الجامع الذي كان ولا يزال يعتبر درة من درر فن البناء في العصور الوسطى والحديثة معا ٠ وقد سار خلفاء الداخل على نهجه من الاعتناء بالبناء والمنشآت حتى امتلأت انحاء الأندلس بالقصور والجوامع والابنية الجميلة النادرة التي ابقت الظروف على عدد منها كي يكون شاهدا على رقي الفن العربي في تلك العصور المظلمة وعلى رفعة الذوق وتقدم العلوم الهندسية عند العرب ٠٠

كان الوقت في أيار من سنة ١٩٥٦ عندما غادرت مدريد متوجها نحو الجنوب ، نحو الاندلس وكلي شوق ورغبة لمشاهدة ما تركه اسلافنا من الآثار الخالدة في تلك البقعة الجميلة من الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط ٠ وقد نويت التعريج قبل كل شيء على عاصمة المملكة الاسبانية القديمة طليطله لمعرفتي بالدور الهام الذي لعبته هذه الحاضرة القديمة في تاريخ العرب في الأندلس ٠ وبعد مسيرة حوالي ساعة ونصف في القطار وعلى بعد خمسة وسبعين كيلو مترا من مدريد نزلنا على رصيف المحطة في طليطلة ٠ كان أول ما فعلته هو تأمين فندق لقضاء تلك الليلة ومن ثم خرجت استطلع معالم المدينة ٠

وجدت طليطله مدينة متواضعة صغيرة لا يزيد عدد سكانها عن ستين الف نسمة ولكنها جميلة اخاذة خاصة من وجهة النظر التي كانت تهمني وهي الطراز

العربي . فالمدينة لا زالت تحتفظ بطرقاتها القديمة ودروبها المنحدرة ومنازلها الصخرية العتيقة التي يحوي معظمها على باحة مكشوفة في الداخل يتوسطها بركة على الطراز العربي الذي نشاهده الآن في كثير من منازل دمشق القديمة المبنية على الطراز العربي . وكنت استطيع مشاهدة تلك الباحات المنزلية الداخلية وانا اتجول في الشوارع لان ابواب المنازل معظمها من الحديد المشبك الذي لا يحجب شيئا عن انظار المتفرج . ولم اكد اشعر بنفسي آنذاك انني اتجول في مدينة اوربية بل شعرت كأنني اتجول في حي من احياء دمشق القديمة التي لا زالت آثار الفسيفساء والاحجار الملونة تزين جدران بعض منازله وأجزائه . ولا زالت طليطلة تحتفظ بقسم من أسوارها العربية القديمة وابراجها وابوابها كما ان من ابدع ما بقي فيها جسر القنطرة العظيم الذي بناه الحاجب المنصور بن ابي عامر على نهر التاجه كي يصل المدينة بالطرف الآخر من النهر . وعلى احد طرفي الجسر يظهر باب قديم يعلوه برج مرتفع كان يستعمل للمراقبة امام السلم والدفاع عن المدينة ايام الحرب .

وفي شمالي المدينة يقوم البناء المعروف باسم Aeeayar القصر واسمه العربي يدل على أصله العربي . وقد بقي من ذلك الاصل الواجهة المطلة على نهر التاجه فقط ويظهر فيها طراز الفن العربي بشكل واضح ، اما الاقسام الباقية فهي اقسام جددها ملوك الاسبان في القرن السادس عشر .

وفي وسط شبكة من الدروب الضيقة تقع الكاتدرائية الكبرى لمدينة طليطله التي كانت تشكل في الاصل مسجد طليطله الجامع . وقد استمر هذا الجامع قائما يؤمه المسلمون المدجنون بعد سقوط طليطلة في يد الاسبان زهاء قرن ونصف حتى امر الملك فرناندو الثالث سنة ١٢٢٧ م بتحويله الى كاتدرائية .

وقد شاهدت على جدران قاعة الثياب المقدسة في هذه الكاتدرائية قطعتين من السجاد العربي اللتين كانتا تعتبران كعلمين للسلطان ابي الحسن المريني ظفر بهما الاسبان لدى انتصارهم على الجيوش المغربية في موقعة المعروفة بوقعة طريف لدى المؤرخين العرب سنة ١٣٤٠ م . وقد كتب على احدى القطعتين في قسمهما العلوي والسفلي عبارة : « النصر والتمكين والفتح المبين ، لمولانا ابو الحسن امير المسلمين » كما نقش في وسطها العبارات الآتية : « وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم » « الحمد لله على نعمه » « الملك الدائم » « اليمين الدائم » « العز القائم » . وذكر في ذيلها انها صنعت للسلطان في المدينة البيضاء في شهر جمادي الآخر عام ٧٤٠ هـ . واما القطعة الأخرى فقد كتب في اعلاها : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » . وكتب على يمينها : « نؤمنون بالله ورسوله ونجاهدون في سبيل الله » . وفي ادناها تكملة الآية السابقة : « باموالكم وانفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » كما كتب بعدها : « وما النصر الا من عند الله » « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » « نصر من الله وفتح قريب » « وما توفيقي الا بالله » . واما على الجهة اليسرى فقد كتب : « يا ايها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم » . وذكر في ذيلها انها صنعت لامير المسلمين ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق في ناس في شهر المحرم سنة ٧١٢ هـ .

لما خرجت من الكاتدرائية ذهبت الى كنيسة « مسيح النور » التي يمكن للناظر اليها لأول وهلة ان يعرف انها كانت جامعا في الاصل . ويظهر ان هذا المسجد لم يكن كبيرا ولكنه كان على قسط كبير من الذوق الفني . ولم استطع ان اعرف اسم هذا المسجد ولكن وجدت في واجهته ما يفيد انه قد تم بناؤه في المحرم سنة ٩٩٩ م وان منشئه هو موسى بن علي .

كذلك كنيسة سان سلفادور كانت في الاصل مسجدا ثم حول الى كنيسة سنة ١١٥٩ م بعد سقوط طليطلة بنحو سبعين عاما .

في صباح ..

مررنا قبل الوصول اليها امام غابات من الزيتون والبرتقال والليمون وبسائط من الحبوب والكروم ، وما لبثنا ان توقفنا عند محطة المدينة فدخلتها وفي ذهني فكرة واحدة هي الاسراع الى مشاهدة الجامع الاموي . عندما اقتربت من هذا الاثر الفني العربي الرائع خففت الخطى بقصد تأمله من الخارج قبل الدخول اليه فلاحظت بعض الاهمال في جدرانه وواجهاته الخارجية ، ولكنني عندما جزت الى داخل فنائه الشاسع ادركت انني اواجه اثرا من اجل وأبدع الآثار الاسلامية الباقية في العالم .

لقد بدأ ببناء هذا الجامع الذي لا زال يعرف بالاسبانية باسم الامير الاموي عبد الرحمن الداخل ثم اتمه من بعده ابنه هشام وزاد فيه عبد الرحمن بن الحكم وصار كل من الامراء والخلفاء الامويين يدخل عليه بعض الزيادات والتحسينات حتى غدا برفعته الشاسعة وأعمدته اللامتناهية وزخارفه البديعة أعظم المساجد الجامعة في العالم الاسلامي .

يشغل المسجد الجامع مساحة واسعة تقدر بنحو ثلاثين الف مترا مربعا ومائتان وتسعون عمودا من المرمر المصقول تجمع فيما بينها اقواس مزدوجة ملونة بالوان بديعة لا زالت تحتفظ برونقها حتى اليوم . اما المحراب فقد زين بالفسيفساء واجريت الفضة من جدرانه . بينما

صنع المنبر من العاج ونفيس الخشب ، وهو مؤلف من ستة وثلاثين الف قطعة منفصلة رصع اكثرها بالاحجار الكريمة وسمر بمسامير من الذهب ٠ وسقف الجامع بشكل تحفة من تحف فن البناء في العصر الوسيط ، والزجاج الفاخر الذي استحضره صناع ماهرون من بيزنطه لا زال يلمع لمعان الجواهر واشجار البرتقال المورقة في صحن الجامع لازالت تساير امتداد الاعمدة ٠٠٠ ولكن شوه ذلك كله بتحويل هذا الجامع الى كنيسة عظمى وضع في وسطها الهيكل الرئيسي والصلبان والشموع فجرد الجامع من صفته الاساسية على الرغم من ان عددا جما من العلماء والمواطنين الاسبان وغير الاسبان انتقدوا ذلك وفضلوا الاحتفاظ بهذا الاثر الفني الرائع ٠

فقد علق المؤرخ الاميركي على تحويل المسجد الجامع الى كاتدرائية بانه « أشنع عمل همجي ارتكب لتشويهه » ٠ كما يذكر ان الامبراطور شارلكان بعد ان اذن لاسقف قرطبة باقامة الهيكل الرئيسي ندم عندما رآه وقال للمشرفين على الجامع « لقد بنيتم هنا ما كان يمكن بناؤه في اي مكان آخر ، وقد مضيتم بذلك على ما كان اثرا وحيدا في العالم » ٠

وفي سنة ١٥٩٣ ازيلت منارة الجامع القديمة واقيم فوق انقاضها برج الاجراس الحالي على نمط يشبه المنارة وارتفاعه ثلاثون مترا ٠ وقد حمل العلماء الاثريون جميعا على هذا التشويه الذي لحق بالآثار الاسلامية كما يبدو واضحا في الكلمة البليغة المؤثره التي يستهل بها المستشرق والعلامة الاثري الاسباني امادور دي لوس ريوس كلامه عن تاريخ المسجد الجامع اذ يقول :

« انه لا الأوضاع النصرانية الفخمة التي تقوم اليوم ، في وسط هذه العمد التي لا تحصى ، ولا ذخائر الفن الذي اغدقه عليها كبار الفنانين الذين أقاموها في القرن السادس عشر ، ولا تلك السلسلة التي لا نهاية لها من المصليات التي ترجع الى كل عصر ، والتي حشرت بجدران المسجد وشوهتها ، ولا الصور التي تغطي عقوده في الجزء المخصص للمحراب ، ولا اولئك الملائكة الثقال الذين كأنهم يؤخرون طيرانهم لكي ينيروا العبادات المقدسة ، ولا الكلمات الانجيلية التي تدوي من كرسي الروح القدس ، في هذه العقود ذات البناء المحدث ، يمكن ان تبدد او تمحو ذرة من جلال هذه الاشباح المتجولة ، التي تبحث عبثا في زاوية المحراب عن ذلك الكتاب المقدس ، الذي غمست صمغه ، حسبما تقول الرواية المتوارثة ، بدم عثمان الزكي شهيد الايمان ٠ ان ثمة عالما من الذكريات يملأ مخيلة السائح ، حينما يسرح البصر بشعور من الاسى خلال هذه التشويهات : تلك الاعمال التي املاها ايمان اجدادنا المغرق المخلص معا ٠ فدفعتهم الرغبة في ان يمحو الى الابد ، من البقعة التي خصصت لكتاب عيسى ، روح محمد واشباح اوليائه الذين يغشونها ، والذين سوف يغشونها دائما ما بقيت في الوجود ٠ ذلك انه بالرغم من كل التشويهات التي عملت ، وكل التغييرات التي احدثت بها ، فانه قد ضم عليها ، وفقا لقانون مختوم ، بخاتم الفن الذي اوحى بها، وروح الامة التي وضعت خطتها واقامتها » ٠

ويشاهد في جامع قرطبة عدة نقوش وكتابات تدل على تواريخ اصلاحه والزيادات فيه اقدمها ما نقش فوق الحافة العليا لبابه الغربي وهو يؤرخ التجديد الذي قام به الامير محمد بن عبد الرحمن في سنة ٢٤١ هـ ٠ بيد ان اهم نقوش المسجد الجامع هما اثنان اولهما يؤرخ ما قام به عبد الرحمن الناصر من اقامة واجهته ، والثاني ما نقش بالكوفية داخل المحراب لتأريخ ما قام به الحكم المستنصر في انشاء المحراب وكسوته بالرخام ٠

امام المسجد الجامع من الناحية الجنوبية ، تقع القنطرة الاندلسية القديمة على نهر الوادي الكبير ، وهي رومانية الاصل انما جددها السمح بن مالك الخولاني أمير الاندلس وهي تربط قرطبة بضاحيتها المسماة « حي الروح المقدس » ٠

خرجت من المسجد الجامع وانا نشوان بروعة ما رأيت ودقة ما شاهدت ولكن كان علي ان اسرع الخطى الى مدينة الزهراء لأرى ما تبقى من تلك المدينة العظيمة التي بناها خليفة الاندلس الكبير عبد الرحمن الناصر ٠

سألت عن الطريق التي يمكن للسائح بها ان يصل الى مدينة الزهراء فاجبت بأن علي ان استقل سيارة اجرة صغيرة او ان اركب احد الباصات الذي يوصلني الى قرب المنطقة ويكون علي حينذاك ان اصعد منحدرا بسيطا حتى اصل الى الباب الرئيسي ، فكرت ثم فضلت الطريقة الثانية حرصا على الميزانية ٠

تحتل مدينة الزهراء مكانة سامية ومقاما ملحوظا بين الآثار القديمة الراقية ٠ وقد بناها الخليفة الناصر على بعد سبعة اميال غربي قرطبة بعد ان ضاقت هذه بمتطلبات الخلافة الاندلسية وعجزت عن استيعاب المزيد من القصور والحدائق والمساجد والحمامات وغير ذلك ٠٠ ولقد استمر العمل فيها حوالي اربعين سنة اي في عهدي الناصر وابنه الحكم ، ولم يدخر الناصر جهدا ولا نفقة في تشييد حاضرته الجديدة وتجميلها وزخرفتها فخرجت روعة تدهش الابصار وتأخذ بمجامع القلوب ٠ ولكن مع الاسف ان هذه القاعدة الملوكية الجديدة لم تعمر طويلا

ـ حوالي اربعين عاما فقط ـ تحول مركز الثقل بعدها الى المدينة الجديدة التي بناها الحاجب المنصور بن ابي عامر والتي سماها الزاهرة ونقل اليها خزائن الاموال والسلاح والدواوين وغير ذلك ... ثم ما لبثت الزهراء بعد هذا الاهمال ان عدت عليها عوادي الزمن واقتحمت عدة مرات فدمرت وأحرقت ونهبت ، ولم يمض زمن طويل حتى نسيها الناس وكأنها لم تكن ولم يبق من آثارها سوى أطلال متداعية .

وقفت اسرح البصر في معالم الزهراء وأطلالها فلم اجد في الحقيقة مايسترعي الانتباه للوهلة الاولى الا اذا تمعن الانسان بدقة في تلك الاثار وتصور ماكانت عليه قصورها من الروعة والعظمة . وقد تم الكشف عن قصر الخلافة الرسمي منذ سنة ١٩١٢ م على يد احد علماء الآثار الاسبان الذين لا يألون جهدا في القيام بالحفريات الاثرية في انحاء المدينة . وقد اخذ هؤلاء باكتشاف اجزاء المدينة منذ ذلك التاريخ حتى تم لهم اكتشاف قسم كبير منها . ولازال التنقيب جاريا الى اليوم . هذا وقد عثر المكتشفون على مجموعة ضخمة منوعة من القطع والزخرفة والاعمدة والالواح والاحواض الرخامية ومئات من القطع والاواني الخزفية والبلورية ووضعت كلها في متحف خاص اقيم عند مدخل المدينة .

انفقت في التجوال بين اطلال الزهراء ساعات طويلة تحت شمس حادة . وبدا لي ان هذه الأقبية والابهاء والانفاق والشوارع ، اذا دلت على شيء فانما تدل على ما كانت عليه مدينة الزهراء الملوكية من آيات الجلال والروعة التي تحدثنا عنها الروايات والتي لم يبق منها شيء تقريبا . ويكفي من اجل ذلك ان اورد بعض ما قاله في وصفها احد المؤرخين العرب :

ابتنى الناصر في حاضرته الجديدة قصرا منيف الذرى ، لم يدخر وسعا في تنميقه وزخرفته ، حتى غدا تحفة رائعة من الفخامة والجلال ، تحف به رياض وجنان ساحرة ، وانشأ فيه مجلسا ملوكيا جليلا سمي بقصر الخلافه ، صنعت جدرانه من الرخام المزين بالذهب ، وفي كل من جوانبه ثمانية ابواب قد انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب والجوهر وزينت جوانبه بالتماثيل والصور البديعة ، وفي وسط صهريج عظيم مملوء بالزئبق . وكانت الشمس اذا اشرقت على ذلك المجلس سطعت جوانبه باضواء تشبه لمعان البرق حتى يضطر رجال الدولة الى حجب اعينهم بايديهم فاذا فرك الزئبق قليلا خيل لمن في المجلس ان المحل قد طار بهم . وزود الناصر مقامه في قصر الزهراء ، وهو الجناح الشرقي المعروف بالمؤنس بانفس التحف والذخائر ونصب فيه المومن الشهير الذي أهدي اليه من قيصر قسطنطينة ، واقام عليه اثني عشر تمثالا من الذهب الاحمر المرصع بالجوهر ، وهي تمثل بعض الطيور والحيوانات وتقذف الماء من افواهها الى الحوض ...

غادرت اطلال الزهراء عائدا الى قرطبة وتوجهت لتوي نحو محطة القطار كي استقله في طريقي الى عاصمة الاندلس الثانية أشبيلية .

تعتبر اشبيلية اليوم بين المدن الاسبانية الكبيرة ويبلغ عدد سكانها نحو ٤٠٠ الف نسمة . واول ما تقع عليه عين السائح في هذه المدينة الشامخة المسماة « الخيرالدا » و « الخيرالدا » هي مئذنة المسجد الجامع الذي بناه خليفة الموحدين ابو يعقوب يوسف سلطان المغرب والاندلس اثناء اقامته في اشبيلية . وقد خرج هذا المسجد بعد بنائه تحفة في الاتقان والجمال واشتهر خاصة بمنارته المذكورة الذائعة الصيت .

ولما سقطت اشبيلية بيد النصارى سنة ١٢٤٨ م حول مسجدها الى كنيسة فهدم معظمه ولم يبق منه الآن سوى صحنه الذي يوجد في وسطه نافورة اندلسية ، وباب الجامع الرئيسي الواقع في شمالي الصحن والذي لا زال يحتفظ بزخارفه البرونزية الاسلامية وقد نقشت على كل من قبضتيه الضخمتين ما يأتي « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد » .

اما المئذنة « الخيرالدا » فقد بقيت على ما كانت عليه تقريبا عدا قسمها العلوي ، ويبلغ ارتفاعها ستة وتسعين مترا يصعد اليها من الداخل بواسطة مساطب منحدرة مرصوفة بالآجر يبلغ عددها حوالي الثلاثين ، ولكل مسطبة شباك صغير يطل على الخارج ، وقد زينت واجهاتها بنقوش عربية ومغربية بديعة .

صعدت الى اعلاها واشرفت على مدينة اشبيلية التي تعتبر الآن رابع مدينة في اسبانيا وتجمع بين القديم والحديث فشاهدت منها القصر الرائع الذي بناه المعتمد ابن عباد الى جانب المسجد الجامع والذي لا زال موجودا محافظا على زخارفته ونقوشه وكتابته العربية والوانه وطابعه وروعته .

لم اترك رؤية القصر تفوتني طبعا ، ولا ابالغ اذا قلت بانني اعجبت به اعجابي بقصر الحمراء في غرناطة فيما بعد وخاصة البهو الرائع المسمى ببهو السفراء . ويتخلل زخارف القصر كثير من العبارات والأدعية

والآيات المنقوشة في جميع جوانبه ومنها : « الملك لله » « الحمد لله على نعمه » « لا غالب الا الله » « عز لمولانا ايده الله ونصره الخ » ...

اما البرج المثمن الذهبي الذي يقع على شاطىء نهر الوادي الكبير الذي يخترق مدينة اشبيلية في وسطها فهو من بقايا اسوار المدينة العربية وقد حول الآن الى متحف صغير جميل يجلب اليه الكثير من السائحين .

ها أنذا أخيرا في غرناطه . وانني لا ادري كيف استطيع ان اعطيكم صورة صادقة عن قصر الحمراء وجنة العريف وقصر شنيل وغيرها من الآثار العربية القائمة التي تسحر الالباب بجمالها .

لم اتخيل نفسي وانا في غرناطة الا في مدينة شرقية بحته تكتنفها مسحة اوربية انما تحتفظ بعض احيائها بطابع أندلسي غالب بعيد الى الاذهان حياة المدينة وشكلها منذ الف سنة خلت .

السواح كثيرون في غرناطة كما في مدن الاندلس الاخرى الهامة . ففنادقها وشوارعها ومخازنها مكتظة بهم وكلهم يتجهون نحو الاثار العربية الخالدة وبالدرجة الاولى نحو قصر الحمراء وقصر جنة العريف والحدائق المحيطة بهما . ان السلطان يوسف ابي الحجاج اعظم سلاطين بني نصر هو الذي بنى قصر الحمراء في ١٣٤٨م م وقد بناه على هضبة مرتفعة تطل على غرناطة كلها تقريبا .

كنت وأنا اصعد الهضبة متجها اليه اشعر بشعور من الغبطة والفرح يعتمل في نفسي لانني قادم على رؤية ذلك الاثر العربي الرائع الذي يشهد على سمو الفن الاندلسي وعلو مكانته في العصر الوسيط .

مئات بل ألوف بل عشرات الالوف من السواح يقصدون يوميا ذلك القصر الاثري العظيم ويقفون أيا كانت جنسيتهم مشدوهين امام تلك النقوش وتلك الافاريز الرخامية وتلك الابهاء الواسعة والساحات الكبيرة والاعمدة المرمرية اللطيفة والبرك الجميلة والنوافير المختلفة الاشكال ، والقبب المزينة المرتفعة ، والزخارف الفريدة من نوعها ، والاروقة المتعددة الطويلة ، والاسود التي تزأر كلما مر بها الهواء وتصب من افواهها ماء عذبا قراحا .. يقف كل اولئك السائحين ويتأملون تلك الروائع العربية فيعجبون من صناعها الذين بلغوا منذ اكثر من الف سنة ذلك الشأو من الحضارة والمدنية .

لقد شعرت وانا اتجول في فناء الريحان وفي بهو السفراء وفي قاعة الاختين وفي فناء الاسود وفي قاعة بني سراج وفي قاعة الملوك .. ثم في قصر جنة العريف المجاور لقصر الحمراء وفي الحدائق الملكية المحيطة بكل هذا ، شعرت وانا اتجول ضمن مجموعة السواح الذين كانوا يزورون القصر آنذاك ، بالغبطة والفخر والعزة تملأ جوانحي وانا استمع الى شرح الدليل يقص علينا قصة ذلك ا لقصر ويشرح لنا قصة بناء كل حجرة من حجره واسم الملك او المهندس العربي الذي اشرف على بنائها شعرت بالسعادة آنذاك لكوني عربيا وتمنيت ضمنا أن يعلم الباقون بانني عربي اذ كنت متأكدا ان نظرتهم الي حينذاك سيشوبها كثير من الاعجاب والاكبار لكوني حفيدا من احفاد بناة قصر الحمراء .

اما الابراج المحيطة بالقصر فلا زالت كما كانت عليه واشهرها برج قمارش وبرج السيدات وبرج الآكام وبرج الاسيرة وبرج الاميرات وبرج الماء وغيرها .

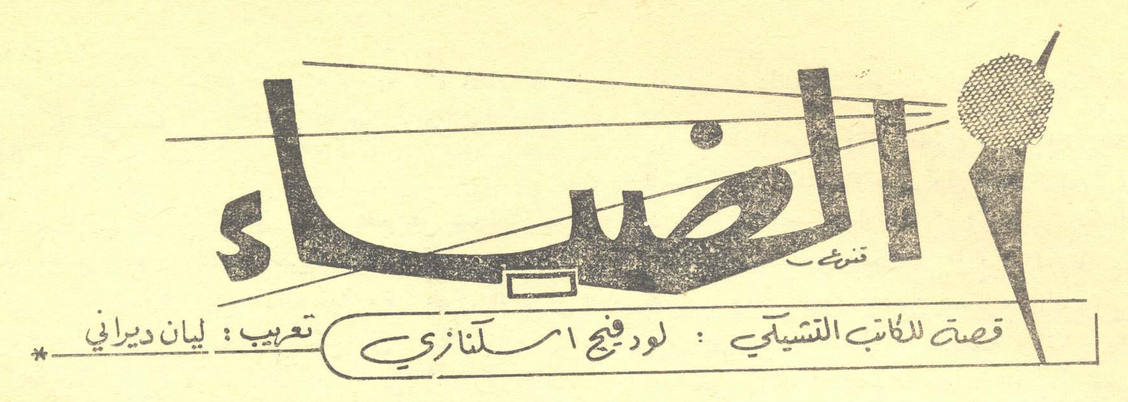
ليست هذه هي الآثار العربية الوحيدة الباقية في غرناطة بل هناك في كل زاوية من زوايا المدينة اثر اندلسي باق ولو بصورة جزئية كما هو الامر في قصر شنيل الذي نرى على مدخله عبارة « لاغالب الا الله » شعار ملوك بني نصر طوال حكمهم ، وقد نقش ايضا في عقد المدخل مايأتي :

ياثقتي ياأملي انت الرجاء انت الولي
فيا للنبي المرسلي اختم سير عملي

لو اردت أن أحدثكم عن بلنسيه وآثارها وعن سرقسطة وقصر الجعفرية فيها وعن مالقة وقصبتها وعن المرية وقلعتها وعن رندة والقنطرة العربية فيها وعن مدينة طريف وحضها عن الجزيرة الخضراء والآثار العربية المنفردة الباقية فيها وعن المدن الاندلسية الاخرى لطال بي البحث وتشعب .

ولذلك فأنني اكتفي الآن بالقدر الذي ذكرت متمنيا لكل منكم ان تتيح له الظروف زيارة تلك الآثار في اقرب وقت ليشاهد حضارة العرب الرائعة في ذلك القسم الهام من اوروبا وليتأكد بأن اسلافه كانوا في تلك الفترة أسياد العالم حضاريا وسياسيا وعسكريا والسلام عليكم





تبين ذات يوم ، بكل بساطة ، ان السكاب ستانيسلاف برابيك قد ارمد شعره ، وسجلت آلة التخطيط في مستوصف المعمل ، دقات قلبه في خط مائل متكسر ومشوش . كان قد هوى على ركبتيه قرب الفرن ، مما استوجب مساعدة رفاقه اياه ، كي يعاود الوقوف على قدميه . وكان شاحبا ، ينضح عرقا كالينبوع

كان الرجل قد امسى مسنا ، بل اكبر سنا مما يظن .

فالسكاب ستانيسلاف برابيك ، قضى ثلاثين عاما وهو يمارس عمله في الليل . كان يسكب المعادن ليلا ويرقد نهارا . وتوالت السنوات اثر السنوات وقواه البشرية تخور شيئا فشيئا . وعلى حين غرة ، اخذ قلبه يدق كالجرس ، وتراخت ركبتاه ، وتراءى لناظريه خليط من بقع خضراء وارجوانية . كان ستانيسلاف برابيك قضى سنوات طوالا بجوار هذا الفرن الذي امتص نخاع عظامه .

ألا يمهدون له سبيل الاستراحة ؟

أرسلوه الى بود يبرادي ، حيث استحم في حمامات « فوارة » وزار قصر جيريك القديم . كانت نوافير الماء تتدافع كالاسهم والبعوض تلسع والسكاب ستانيسلاف برابيك يرسم على الرمل بطرف عكازه اسماكا وازهارا غريبة الشكل . وكان يركب قارب الآلب ليقصد الى كولان وهو يرقب في كمد ، من فوق الحاجز ، العجلات ذات العوارض الخشبية ، الآخذة في الدوران . وفي عرض النهر ، كان السكاب يحلم في انهار اخرى .. في جداول وهاجة من الحديد ، متدفقة من احشاء الفرن العالي . كان كل شيء يضطرم بضياء شاحب ، والكتلة النارية تسيل وتسيل براقة ، وهاجة . والرجل هو الذي ينظم مجرى هذا الجدول ويحدد له مصبه : انه السكاب ستانيسلاف برابيك ، سيد هذه العناصر .

وعاد الى اوسترافا بغتة وهو أشد نحولا مما كان عليه . وغادر المحطة سيرا على الاقدام ، وهو يجرع هواء مدينته الممزوج بالدخان ووجهه يطفح بشرا .

اياك والتحدث عن بود يبرادي بحدائقها ومتقاعديها أف ..! أما أوسترافا .. فهذه مدينة ، انها مدينة زاخرة ومرحة !

وكانت في البيت مفاجأة بالغة . فقد صفقت الام قائلة :

– ومن أين برزت ؟

وأضافت مغمومة :

– للغداء ، صنعت أقراصا من البطاطا .

وفي اليوم التالي ، فحصه طبيب المعمل ثم هز رأسه . لاشك أن انحناءات التخطيط كانت بين صاعدة وهابطة ، في تموجات منتظمة ، بيد ان الحالة أبعد مما ينبغي ان تكون عليه ، وكان السكاب ستانيسلاف برابيك موضع لوم شديد لفراره من بود يبرادي .

لا بد من القول هنا ، ان هذا الهرب لم يكن مبعثه الوحيد ، السأم الذي تثيره الجنائن المنسقة ابدع تنسيق في المدينة ذات المياه الحارة . انما ألمت به ظروف لا تقل عنها فداحة . ففي احد الايام ، تلقى ستانيسلاف برابيك وهو في بود يبرادي رسالة من ابنه توماش دبجت على الشكل التالي :

والدي العزيز

ما اكثر ما نفكر فيك . نأمل ان تعتني بنفسك كما ينبغي . انك تترك بيننا فراغا . أما من جهتي فقد عزمت – وبصورة جازمة يا بابا ! – ان أكون مثلك سكابا . لا تحاول ان تجعلني أعدل عن رأيي يا بابا : فأنا اعرف ما أصنع . مباراة يوم الاحد ، لم تكن باهرة . ولحسن حظك انك ما شهدتها ! اذ لا ريب انها قد تثير اعصابك على الفور ... لقد أسقط في يد أنتوس في مرماه الخاص : ما ابلده ! نحن قلقون عليك ، لا تسرف في احتساء الجعة .

ولدك الذي يقبلك

توماش

لقد ساهمت هذه الرسالة مساهمة فعالة في حمل

ستانيسلاند برابيك على التصميم على مبارحة حمامات بوديبرادي ، دون ابطاء •

انه يرى من حقـه ان يتدخل في مشـاريع الفتى توماش •

فهنالك ، منـذ القـدم ، ما يشبه قاعدة ، غـير محظوظة ، تختص بالفقراء • فان كان الاب قابعا وراء طاولة اسكاف ، فما على الابن الا ان يقبع وراءها بدوره • فلكل امرىء مقام : وما دامت العروش وراثية ، فمخرز الحذاء وابرة الخياط ومثقب الثقاب في المنجم ، هيوراثية أيضا • فاذا ما آ الاوان ، أمسك ثقاب المنجم بيد ولده وسار به الى اعماق الارض • ولا يضير بأي شكل مـن الاشكال ان كان ذلك يروق او لا يروق للفتى • فقـد يتمتع الولد بفكر حالم ، مولع بالموسيقا ، يقضي ليالي كاملة الاستماع الى المعزوفات ، تحت نوافذ حانة ، وقد يرى في نومـه صورة الكمان والمزمار وقـد يسحر ويؤخذ بأنغام الارغن في الكنيسة ، وقد يقف مسمرا امام واجهات المخازن مفرقا في تأمل اكورديون براق : وبعبارة موجزة ، قد يكون موسيقيا لحما ودما ، بيـد ان اباه لا يذهب به الى اساتذة المعاهد الموسيقية المحترفين ، بل يذهب به الى قفص الظلام • ان قوت العامل لا يتوفر الا بجهد وعناء ••• فما الفائدة اذا من الموسيقا ؟

على هذه الصورة ، كانت انسانية مستهترة تفقد الكثيرين من اشباه بتهوفن ، على حين ان بنات خاملات من أسر مرموقة يخبطن في سأم على مدرج بيانهن • فمـا النبوغ الا حكاية مال • فمن ملك مالا كان موهوبا •

اما اليوم ، فقد تبدلت الامور ، وليس في حاجة الى التبسط في هذا الموضوع • فالعزف على البيان لم يبق جزء من مهر الفتاة والشهادات الجامعية لم تعد انعكاسا لمكانة الاب • فما من شيء يحول دو ابن الاسكاف ، كي يصبح عميدا يعهد اليه بالقاء الابحاث عن الدراسات الشرقية ، ان كان يتمتع بكفاءات مؤهلة ، وكذلك ، قد تصبح ابنة ثقاب المناجم منشدة بارعة •

او ابن السكاب طبيبا •

وها نحن في صلب بعض المطامح التي يسرهـا ستانيسلاف برابيك المسن • نحن جميعا نضمر آمالا بعض حنايا وجداننا • وكان ستانيسلاف برابيك قـد أقام هو الآخر ـ وبنى حلما بسيطا ، مآله ، ان يرى ابنه توماش في قميص ابيض ، ينتقل خفي طبيب ، يطوف دون جلبة بأسرة بعض المشافي • فاذا ما اقبل لزيارة والديه ، فلن يـكون فقط ذلك التوماش المعهود ، بل الطبيب الذي انبثق من أسرة برابيك • فتهرع امه الى تناول حقيبته الطبية ، ويمضي هو الى المغسلة ليغسل يديه • تلك هي الاحلام الساذجة التي كانت تراود مخيلة السكاب ستانيسلاف برابيكحول مستقبلولده توماش •

كان يريد له ان يغدو طبيبا •

وآب من بوديبرادي لانقاذ الموقف ، الا انه ما أنقذ شيئا • فقد كبر الابن وبلغ الخامسة عشرة من عمره • وما عساه ان يجيب عن هذا مثلا : ـ ارأيت يا بابا ، انك ما زلت تضمر شيئا من نفسية البورجوازي •

لقد تعلم الابنـاء ان يتكلموا هكذا • فبأي شيء يمكنك ان تجيبهم ؟

وظل ستانيسلاف برابيك واجما ، مقتصرا عـلى المشي في الغرفة جيئة وذهوبا بخطى واسعة • وتذكر كم من مرة ، بدل ولده مشاريعه المقبلة • فقد زعم وهو في الثالثـة من عمره ، انه سيصبح مفتشا في السـكة الحديدية ، واخذ يقسم وهو في الخامسة انه سيصير بحـارا ، وكـا يلقي بالقوارب الورقيـة على صفحـة الاوسترافا ، ويضع على رأسه قبعة كتب عليها : « ذئب البحار » وحين بلغ السنة العاشرة عزم على ان يغـدو مخترعا • وفي الثالثة عشرة ، شاء ان يحط رحاله في عالم الطب •

وقبل بلوغه الخامسة عشرة بثلاثة ايام ، أهدي دراجة وقصائد لولكر ، وكان اعجاب ستانيسلاف بولده فائقا •

آه ! ما أغرب هذا الكون !•••

هل مضى حقا زمن طويل جدا على اول لحظة أطلق فيها أولى صيحاته ؟ لقد كان ذا أنف صغير ، بنفسجي ، وجمجمة لا شعرة فيهـا • وبعد حين ، جعـل يضحك لناقوسه الخشبي ، وفيما بعد ، صار يخاف العنز والاوز خوفا شديدا ، ثم راح ينمو وينمو ••• وهاهو الآن ••• انظر اليه كيف أصبح •••

لم يعد الوقت الحاضر ، من حق الآباء أن يضعوا العصي بين عجـلات اولادهم • فالسبل مهيأة والطرق مفتوحة ، ولك أن تمضي حيث يحلو لك ، وان تختار ما شاء لك من الهوى •

ومضى الفتى توماش برابيك الى المدرسة المختصة بتهيئة العمال المقبلين للافران •

واحيل أبوه على التقاعد •

وانصرف الى الاعتناء بجنينته والى قراءة الصحف •

وفي هذه الفترة قصد الى بوديبرادي كرة اخـرى للاستشفاء وفر منها من جديد • لقد توله هذا الرجل

المسن بالتنقل : وظل الاوستراف الاسود وجلبته الدائبة تجذبانه اليهما كما تجذب الخلية النحلة .

ولعل هنالك ، أمرا آخر ، وهو انه في بودايبرادي ، لا يسعه الانصراف الى عاده الغريبة ، الذميمة ، التي لا مناص من سردها .

كان ستانيسلاف برابيك يهب من رقاده فجأة في الساعة الثانية صباحا ، وكان لهذه الساعة أهمية خاصة في مجرى حياته الماضية . فهي البرهة التي ينتزع فيها الصمام من أسفل الفرن العالي ، عن الثقب الذي تنهال منه كسيل جارف ، ساقية من اللهب والشرر . ففي الساعة الثانية صباحا ، كان يتمم بصورة منتظمة ، اسالة سكبة الفرن العالي الخاص بستانيسلاف برابيك .

هنالك يكمن الماضي ومن العبث الرجوع اليه ، لولا هوس السكاب القديم .

ففي الساعة الثانية تماما ، هنالك من يشعل عودا من الثقاب في غرفة النوم في بيب برابيك ، وكان ذلك هو العجوز يبحث عن خفيه . وبعد هذا يتوجه بخطوات خفيفة ، وفي حذر فائق ، صوب النافذة ... حذار ، ايها العجوز الفاني ، ان تقلب هذا الكرسي أيضا !

يفتح النافذة بعدئذ ، على مصراعيها ويعب نسيم الليل في نهم ليملأ رئتيه . ثم يشعل عودا ثانيا لينير وجه ساعته . العقارب تشير الى الثانية تماما ، أجل ، وسعك ان تصدق ، كانت الساعة الثانية تماما .

وتتقلب الام في فراشها ، متظاهرة بالنوم . كان هذا اتفاقا صامتا بينهما . فليس من حق ماري برابكوفا ان تستيقظ الا في تمام اللحظة المحددة لها .

كان ستانيسلاف برابيك ينتظر وهو واقف عند النافذة . ففي الربيع ، كانت هسهسة الاوسترافا تصل الى السمع ونفحات عطرية تعبق في الجو . وفي الصيف ، كانت ذرات الفحم والحديد تتطاير امام النافذة ممزوجة بغبار الطلع المتناثر من الازهار والاشجار . وفي الخريف ، عوالم من النجوم تخور وتتهاوى في مجاهل الليل . وفي الشتاء ، كل شيء وادع ، وابيض ، وقد يتساقط الثلج احيانا ... لو تلبس ما يدفئك على الاقل ، ايها الشيخ المأفون !

ولكن ما أعجبه ! انه يلازم مكانه منتظرا . لحظة واحدة ، برهة صغيرة جدا من الليل ، بضع خطوات تافهة من سير الزمن . ساعة الجدار تتابع حركتها ... تيك تاك ... هلم ايها الزمن ، الى الامام ! هلم ، تقدم ، تقدم ! امضي في سيرك ، هيا !...

ويلتهب الافق فجأة بضياء عميق ، وضاء . لقد كان احيانا ، ذا بريق ازرق ، شاحب ، وفي احيان اخرى ، يسطع بلون ارجواني وبرتقالي يشبه انبثاق فجر او مغيب شمس .

وفي هذه اللحظة نفسها ، يسيل من الفرن العالي نهر من الحديد . انه حديد جديد ، متحرك .

وينتظر ستانيسلاف برابيك ، حتى يكمد النور ، ثم ينطفىء . عندئذ يؤوب الى فراشه ، ويعاوده رقاده في دعة .

وفي هذه الاثناء ، تفتح زوجته ماري عينيها سائلة :

ـ أرأيت الضياء ؟

فيجيب العجوز :

ـ نعم رأيته .

وتقول بعد صمت :

ـ اما زلت تدخن ؟

ليس ثمة من جواب ، فان جمرة غليون برابيك تبص لماعة ، غامزة في العتمة كعين حمراء .

ويقول ستانيسلاف برابيك ، متأوها مثقلا بالنعاس :

ـ نامي ايتها الام .

فترد عليه هامسة ، مطيعة :

ـ هذا ما أفعل ، ايها الاب !

الا انها لا تفلح في معاودة النوم . ان هذه الاوقات من الليل بالنسبة اليها وفي سنها ، كانت موعد الاسترسال في التفكير . انها تفكر في كل انواع الامور الهامة : زر قميص ستانيسلاف ـ وأهمها زر القبة ـ فهو يتدلى من طرف الخيط ... وبعد ، صار من اللازم الالتفات الى زجاج النوافذ ، اذ لن يكون مستطاعا بعد حين النظر من خلالها !

كان ستانيسلاف برابيك يتنفس في دعة وسكون وهي ترنو الى الظلمات في بسمة طلقة ، حكيمة .

انت تستيقظ في الساعة الثانية ؟... حسنا ، استيقظ ما دام قلبك يدفعك الى ذلك ! لو كنت تعود الى البيت في هذا الوقت ، لكل ذلك أقبح ... الضياء ؟ آه ! هذه العادة لا تحملني على الغيرة . ففي مقدورك ان تنظر اليها ما شئت ان تنظر ايها الشيخ المأفون كما تشاء !...

لقد أذعنت ماري برابكوفا ، الزوجة المثالية ، لوسواس زوجها .

لقد اختصما بادىء الامر ، أشد خصام ، لهذا السبب . من رأى ، في حياته ، أناسا يستيقظون هكذا ليلا ، في البيوت المحترمة ؟ ألا تريد العودة الى فراشك

ايها السم الناقع ؟٠٠٠ اخيرا ، ستانيسلاف ، اغلق هذه النافذة ، لقد صرنا في مثلجة حقيقية !٠٠٠

وانتهى بها الأمر ، رغم هذا ، الى أن ألفته ٠ فكانت تستيقظ مع زوجها المتقاعد ، وتتابع من بين جفنيهـا المطبقتين نصف اطباقة ، حجيجة الى النافـذة وترتاح لعودته منها ٠

اما اليوم ، فان ستانيسلاف برابيك ، السـكاب القديم ، ينعم بسبات متواصل وهانيء ٠٠٠ فقد اصبح تنفسه عميقا ومنتظما ، وهو لا يتقلب من جنبه الايسر الى جنبه الايمن وبالعكس الا مرتين او ثلاثا على الاكثر الليلة الواحدة ، وقد زايله هوسه العنيف ٠٠٠ وما معنى يقظته الآن ، على هذه الشاكلة ليمضي الى نافذته مأخوذا كعاشقة متيمة ؟ وقد احسن صنعا ، باقلاعه عن هذه العادة ، وليس في وسع المرء الا ان يوافقه على ذلك ٠ فما أسأم الوساوس الخيالية ٠٠٠

ولقد تم ذلك على الشكل التالي :

كان اليوم الذي عاد فيـه برابيك الصغير ، مـن مدرسة العاملين في صنع المعادن يوما مشهودا ٠ وكانت الاحلام في قميص الطبيب الابيض قد دخلت في هـذه الفترة ، عالم النسيان ٠ فأقبل ستانيسلاف على ابنـه يقبله ، لا كأب وحسب ، بل كزميل أيضـا ٠ وكانت نظريات توماش الفنية ، جعلته مع شيء من الضيق وقليل من الكدر ولا سيما حين قال له الابن :

ـ وبعد ، أتعلم ، يا أبي ، اننا اطلعنا على بعض الامور المتعلقة بالدراسة الاشعاعية للمواد المذيبة وغير المعدنية الداخلة في تركيب الفولاذ ٠٠٠ ليس في قدرتك ان تطلع عليها : فهذه امور لاعلاقة لها بالحديد وبالافران العالية ٠ اما فيما يختص بالحديد فالامر أسهل ٠٠٠

او حين قال له ايضا :

ـ اذا كانت البرودة غير كافية ، فلا فائدة مـن انتظار اقل نتيجة ٠

هذه هي الحكاية اذا ٠٠٠

الدراسةالاشعاعية للمواد المذيبة ، غيرالمعدنية ٠٠٠ اما انت ، فليس في قدرتك أن تطلع عليها ، ايها العجوز المأفون ! هلم ، بادر الى تقـديم فائق الاحترام لولدك وسله : ايتاح لي شرف التحدث الى توماش برابيك ، معلم السكب في الفرن العالي ؟٠٠٠ ليحملك الشيطان ، ايها الوليد الماكر ! حين كان هو ، ستانيسلاف برابيك ، صانعا ، متمرنا كان لا يطلب منه الا ان يسهر على حفظ جعة رئيس الفرقة ، في الدرجة المطلوبة من البرودة ٠٠٠

وعوضا عن هذا ، انظر الى هـذا السكاب : اذا كانت البرودة غير كافية ، فلا فائدة من انتظار اقل نتيجة ٠٠٠ انتظرفقط ، حتى تخلو الى الفرن العالي ، وجها لوجه ٠٠٠ عندئذ سنقبل للاستماع الى اخبارك ، ايها الاشعاعي !

وما دمنا في مجـال الثرثرة الفارغة ، فالامر على ما يـرام ٠ ولكن في ذات صباح جـاء هـذا الثرثار ، توماش ، بكتفتيه اليافعتين وزغبه الاشقر ، الماثل تحت انفه واعلن قائلا :

ـ اليوم ، نقوم بأول سكبة ٠

فقال ستانيسلاف مبهوتا :

ـ من تعني ؟

فأجاب توماش :

ـ نحن الفرن العالي الخاص بالشباب ٠٠٠ ومادام هذا الفرن فرنك ، فينبغي ان تعرف ذلك ٠٠٠

فسأله ستانيسلاف برابيك خافت :

ـ فرني ؟ أنا ؟

ولم يعد يتطرق الى الحديث عن هذه المسألة ٠ الا انه ، نظر الى ابنه ، خلال الغداء ، بهيئة مكمودة :

ـ ومن سيقوم بهذه السكبة ؟

فأجاب توماش برابيك :

ـ انا ، وفي هذه الليلة نفسها ٠٠٠

كان ايجازه بهذه المناسبة في غير محله ٠ وسواء أشاء أم لم يشأ ،فانها لمناسبة حافلة ، لا تتفق مع موقف متحفظ ٠ ! مثل هذا التحفظ قد يكون ناجما عن سعادة ومنبثقا من تواضع : وليس في وسع أحد ان يرى فيـه النقيض : كبرياء لا يغتفر ٠

من ؟ وستانيسلاف برابيك اذا ؟ أيكفي حقا الجواب بجفاء على هذه الصورة : « انا ! » أهذا كاف لمثل هذا الحدث ؟ انتظره الى الغد فقط ، ما دمت على هذا المكر ٠٠ ولكل حادث حديث ٠ ايتها الام ، اياك ان تنسي قميصي الصوفي ، فتضعيه في محفظته ٠ فالأصبحة ندية والولد سيشوى امام النار كالهشيم ، قرب الفرن العالي ٠ فقد يصاب بلفحة برد ، في الريح التي ستخرق جسمه ٠٠٠ أيفطن الى التثبت من أن الفرن العالي على درجة مناسبة من الحرارة ؟ ولكن ليس ثمة من خطر ! وستانيسلاف برابيك لن يحذره ، فليتعلم وحده معرفة تبدل حرارة الفرن ، محط هواه ! وقـد يلزمه ، عدا هـذا ، بدلة جديدة ، لقد نما دون ريب ، كشجرة برية ٠

وحين انصرف الابن ، انتهره ستانيسلاف برابيك من النافذة قائلا :

ـ قبل البدء ، تأكد ان كان فرنك العالي على درجة كافية من الحرارة ٠٠٠

فهتف توماش :

ـ اجل يابابا ! وتوارى الظلام ٠

وظلت الام معه طويلا يتحدثان عن الصغير ، وفر رأيهما في النهاية ، على ان الاطباء يملأون الازقة ، اما السكابون المهرة ، فلا بد من فانوس في رابعة النهار للعثور عليهم ٠

وحكاية الدراسة الاشعاعية هذه ، ليست حديث خرافة ! أتعرفين ، أنت ، ايتها الام ، ما هي الدراسة الاشعاعية للمواد المذيبة غير المعدنية ؟ اعترفي انك لا تفقهين منها شيئا ! وكيف يمكنك ان تعرفي ؟

وانصرفا الى النوم ٠ وفي الساعة الثانية تماما استيقظا ٠ فاستنار ستانيسلاف بثقاب لينقل خفيه ، كيفما اتفق ، وسلك سبيله الى النافذة ٠ ففتح المصراعين وألقى نظرة خاطفة على السماء القاتمة ٠

واقبل القمر ، منطلقا من بين الغيوم ليلقي بشعاع على الساعة التي لا تفتر عن تكتلها ٠٠٠ هلم ايها الزمن، الى الامام ! هلم ، امضي ، تقدم ، تقدم ! ٠٠٠

الثواني تعدو الواحدة ، اثر الاخرى ، وعقرب الساعة الكبير يقوم بحركة ، يوشك الطرف ان لا يلحظها وفجأة !٠٠٠ هاهي اللحظة المعهودة ٠٠٠ دقيقة ، خمس ، عشر دقائق ٠٠٠ وستانيسلاف ينقب في الافق القاتم ، وعضلات رقبته متوترة ، انه يرقب ٠ وتستدير القبة السماوية ، هذه اللجة الشاسعة ذات اللون الازرق القاتم ، وتقبل سحب خفيفة ، تمسح احيانا وجه القمر ، فتشجب اذ ذاك كالابخره ٠ وتتألق من بعيد أنوار وتصفر قطارات ٠ والدواليب في جوف الساعة تدور ٠٠٠ تقدم ايها الزمن !

ساعة مضت والسكاب ستانيسلاف برابيك امام النافذة ، ينتظر الضياء ٠

ولكن ما من ضياء البتة ٠

وقالت ماري برابكوفا :

ـ وماذا تصنع ؟

اما سنانيسلاف فلم ينبث ببنت شفة ، لقد اثار الاضطراب كوامن نفسه ٠ انه يحدق في الظلام بعينين محملقتين ، وكانت السماء بلون الحبر ٠

ما عسى ان يكون قد حدث ؟

وتريث أيضا ، وانتظر طويلا في النافذة ثم اغلقها في بطء وعاد قرب امرأته ٠ كان يمشي بخطوات مترنحة ، متقلقلة ، مثلما يؤوب من المدرسة الطلاب الخائبون في فحوصهم الانتقالية ٠

واستوضحت الزوجة قائلة :

ـ اما رأيت الضياء ؟

فأجاب ستانيسلاف وقد رجع الى النافذة :

ـ لم يظهر اي ضياء ٠

وكأن مجرى الامور العادي قد تحطم اربا ، اربا ، اذ ا ماري برابكوفا جاءت هي ايضا تنتصب معه وراء النافذة ٠ وأمسك احدهما بيد الآخر وراحا ينظران الى جهة الجنوب حيث ينبغي ان يتصاعد لهيب السبكة ، كانت في ردائها الليلي الازرق الذي حاكته بنفسها ٠ وكان وجهها الصبوح المستدير وعيناها الدافئتان قد أكسبتها نحولا وهي في قميص الليل الابيض وقد ادخلت قدميها في نعل بالية ، مثينة الكعب ، لقد كانا جديرين بأن تطلق من اجلهما أفخم واجل أسهم نارية في العالم ٠٠٠ توماش ، مادهاك ، أنر لهما سماء الاوستراڤا السوداء ، بكل ما في وسعك !

بيد ان الافق ظل حالكا ، لاتلتمع فيه الا نجوم ٠٠

وتساءل ستانيسلاف برابيك :

ـ ماذا جرى ؟ ماذا حدث ، يا الهي ؟

وقال بعد ذلك ٠

ـ هاتي ثيابي ايتها الام ، أريد ان أذهب ٠

فقالت وقد بهتت :

ـ الى اين تريد الذهاب ؟ وفي الليل ٠٠٠

ولكن حاول ان تتعقل ايها العجوز العنيد ! بيد انه لبس رداءه واعتمر قبعته وامسك بعكازه الصغير المجلوب من بوديبراي وانصرف ٠٠٠ ينقذ ابنه من الورطة ٠

لم تكن دهشة البواب أقل مما لو كان قد أبصر شبحا : فالمتقاعدون ما اعتادوا في الواقع زيارة افرانهم العالية نهارا ، بلة ليلا ، وفي ساعة متأخرة ، وقد بدأت حواشي الليل تترصع بفضة الفجر الذي أصبح وشيكا ٠

فليس اذا مايثير الدهشة اذا اكفهر وجه الحارس ، كافندا ، الحريص على حفظ النظام ، واعترض ستانيسلاف برابيك بنظرة قاسية ، رغم ما كان بينهما من علاقات قديمة على غاية الود والصداقة ٠

وسأله مذعورا :

ـ الى أين تمضي ايها الصديق ؟ الى المعمل ؟٠٠٠ لا اقدر لك السماح لك بالدخول ٠٠٠ ستانيسلاف ، لا تنظر الي هكذا ! فأنا أنفذ ما يتوجب علي ٠٠٠

– وانا ايضا ، اريد ! ارى ولدي – قال ستانيسلاف برابيك ذلك واردف في غيظ : – اخيرا ، ماذا ، كافندا ، انت تعرفني ، صحيح أم لا ؟

فغمغم البواب :

– صحيح ، وبكل تأكيد .

– اذا ، كافندا ، من انا ؟

– ستانيسلاف ، اسمع ...

– كافندا ، من انا ؟

فأجاب الحارس مازحا :

انت سمكة عجوز – ومن تريد ان تكون ؟

– ألا تدعني أدخل ؟

– مستحيل .

– ألا تريد ؟

– ستانيسلاف ، لا أقدر ...

فتمتم العجوز متوسلا :

– كافندا .

وحدجه البواب بنظرة تفصح عن كل ما يخالجه من اضطراب وانزعاج . ثم قال في دعة ، ونفث زفرة حارة :

– ولكن لا تتأخر ، وبعد فليأت غيري الى هذا الباب ، ليحول دون دخول ستانيسلاف برابيك ، الذي قضى عمره هنا .

وما كان أشد دهشة ستانيسلاف برابيك مما رأى . انها الصورة المعهودة بكل يوم ، الصورة نفسها التي نقشتها في ذاكرته ، خدمة ثلاثين عاما في الفرن العالي . صفير البخار اثناء تملصه ، هدير الآلات الرافعة ، النور اللاهب للمعدن الذي يشتعل مرة ويموت مرة : لقد كان كل شيء في مكانه الاول : الفرن العالي وتوماش .

وجرع ستانيسلاف برابيك جرعة كبيرة من الهواء ، مثلما يفعل اولئك المتسلقون العنيدون اذا ما بلغوا ذروة الجبل .

ولم يكن الشيء الوحيد المخيب الآمال في هذا الاطار ، الا الأب برابيك نفسه ، وهو يطوف بعكاز المتقاعد ، تحت فرقعة آلة رافعة دوارة ، وارتسمت معالم الذعر على وجه توماش ، كما ذعر افراد فرقته . ونظروا الى الطيف الغريب كأنهم يتوقعون رؤيته وقد استحال بغتة الى بخار . بيد ! ستانيسلاف برابيك اجال نظرة خبير ، عاجلة في ساعة المعركة ، قبل مهاجمة وريثه .

– والآن ، ايها الاشعاعي ، ألا يتسايل عرقك ؟

فقال توماش :

– قليلا ، وانت ما جئت تفعل هنا ؟

واحتسى من كأس جعة جرعة طويلة خاصة بالسكابين وقدمها بعدئذ لأبيه ، خذ ، خذ ، ايها السكاب ...

فقال ستانيسلاف برابيك بصوت ساخر :

– طيب ، متى يحين موعد سكبتكم ، ايها الفنانون ؟ جئت ارى ان لم يكن ما ستخرجونه الا حساء مغليا .

فأجاب توماش :

– أنجزت السكبة الاولى منذ زمن طويل ، وبعد برهة سنصفي حساب السكبة الثانية .

فقفز ستانيسلاف برابيك قائلا :

– كيف ؟ الثانية ؟ ومتى تمت الاولى ؟

فقال الابن وقد برقت عيناه :

– في منتصف الليل . عندما كنت يابابا تغط في نومك ! كان خلفك يقوم بهذا العمل بشكل بطيء جدا ... أتعلم ما هي السكبة السريعة يا بابا ؟

فاحتدم برابيك غيظا وقال :

– ابهذه الصورة تخاطب اباك ؟

ثم لزم الصمت .

فاردف توماش قائلا :

– اننا ننجز السكبة في ساعة ونصف . نحن نقوم بعملنا على الاسس العلمية يا بابا ! اننا سكابون سريعون ... هذه مدرسة اخرى !..

آه ! ما أغرب هذا الكون !... كم مضى بالضبط على البرهة التي اطلق فيها توماش اولى صيحاته الطفلية ؟

كنا نرتقب الضياء عبثا ، ايتها الام ، لقد سبقنا . انه ظهر ونحن نغط في نومنا ... لقد فاتنا بكل بساطة وعبث بنا . نعم هذا كل مافي الامر . كنا هناك مسمرين عند النافذة ، نتفرس في الظلام وكان الضياء اسرع منا !

وعاد ستانيسلاف يسأل ابنه :

– ألست جائعا ؟ جئتك بكعكة بالزبدة .

فهتف توماش :

– هو ذاك ! حقا يا بابا ، أشعر بجوع غريب !

منذ هذا التاريخ كف ستانيسلاف برابيك عن الاستيقاظ ليلا ليشاهد اشعاع فرنه العالي . كيف العمل لمجاراة عمل هؤلاء « السكابين السريعين » ؟ فان انت أفقت في الساعة الواحدة ، كانت سكبتهم قد انجزت في منتصف الليل ، وان افقت في منتصف الليل ، يكونوا قد أتموها في الساعة الحادية عشرة ! ان أفضل ما يمكن صنعه ايتها الام ، أن ننام ملء جفوننا ، فما اكثر ما حرمنا النوم في حياتنا !

أخي الانسان

تنويع

شعر: عيسى الناعوري

أخي في العالم الواسع   في المغرب والمشرق
أخي الابيض والاسود   في جوهرك المطلق
أمد يدي فصافحها   تجد قلبي بها يخفق
بحبك يا أخي الانسان

أحبك دونما نظر   الى لونك او جنسك
واكره من يبث الحقد   في نفسي وفي نفسك
لترقص أنت في بؤسي   وكي أرقص في بؤسك
ونشقى يا أخي الانسان

اخي مأساتنا ليست   سوى من صنع ايدينا
فمن أطماعنا العمياء   سودنا لياليــنا
ومن احقادنا الصماء   هدمنا تآخينا
فرفقا يا أخي الانسان

لقد جئنا الى الدنيا   معا لنعيش اخوانا
ونسعد بالحياة معا   أحباء واعوانا
ولو شئنا جعلنا   جنة الفردوس دنيانا
فهيا يا أخي الانسان

تعال نقم حضارات   معا ولنرفع العمران
ونخلق في الحياة لنا   مباهج حلوة الالوان
وضع يمناك في يمناي   في دعة وفي اطمئنان
لنسعد ، يا اخي الانسان

دع الاطماع والاحقاد   لا تجعل لها شأنا
فلن تسعد بالاطماع   او تعلي بنيانا
ولن تمنحك الاحقاد   في دنياك سلطانا
فدعها يا اخي الانسان

تثير الحرب قل لي هل   ستنجو أنت في الحرب
ألا يشقيك أن أفنى   بنارك دون ما ذنب



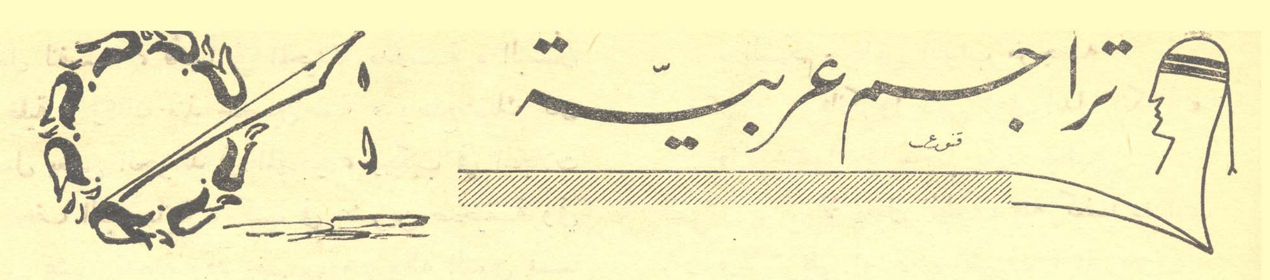
وهل يرتاح اذ تفني   ضميري الحر او قلبي
رويدك يا اخي الانسان

فبيتك يا اخي بيتي   ودربك في الدنى دربي
وعزك لهو من عزي   وحبك يا اخي حبي
وما تلقاه من ضيم   تصيب سهامه قلبي
فيدمى يا اخي الانسان

كلانا نعرف الاشواق   والآمال تحدونا
كلانا نشتهي ، والحسن   لا ينفك يغرينا
كلانا نعرف الصبوات   نبلوها وتبلونا
فمهلا يا اخي الانسان

أخي نحن التقينا اليوم   في الدنيا بلا موعد
ودرب العمر مثل الحلم   مهما طال لن يخلد
سنمضي مثلما جئنا   وذاك مصيرنا الأوحد

سلاما يا اخي الانسان



كاد العام الثاني عشر يلفظ أنفاسه على وفاة فقيد اللغة العربية الشيخ ابراهيم المنذر ، عضو المجمع العلمي العربي في دمشق • وكم كنت أترقب خلال هذه السنوات الماضيات أن أقرأ شيئا يصدر عن زملائه أعضاء المجمع الافاضل في زميلهم الفقيد • ولكنني مع الاسف لم أرو غليلي بقراءة شيء ، كأن الشيخ المنذر لم يكن منهم ، وكأنه لم يكن للمنبر من أمرائه ، وللبيان من أئمته ، ولست أدري سببا لذلك • أليس لنا ان نعتب على زملائه الأعضاء الأفاضل الذين تناسوا واجبا عليهم نحو زميل لهم خدم لغة الضاد ، وأسهم في رفع شأنها •

انه لا شك اهمال ، وأي اهمال ! فوارحمتاه لأبي صلاح ، ولنغفر لزملائه الأفاضل هذا الاهمال ، فلعلهم يكتبون في قابل عنه ، مقدرين جهاده في سبيل خدمة لغة الضاد ، مستنهضين الهمم لاحياء ذكراه ، مصيخين الى نداء الواجب •

الصفحة الاولى من صفحات حياته :

في صباح الخامس والعشرين من شهر آب عام ألف وتسعمائة وخمسين ، نعت أسلاك البرق في لبنان ، أديبا من كبار أدباء العربية ، أديبا خدم العلم والادب خمسين عاما ، معززا لغة الضاد ، مناضلا في سبيل هناء الانسان وسعادته •

يرجع منسب أديبنا المنذر ـ رحمات الله عليه ـ الى بني غسان من عرب اليمن ، من القبائل العربية التي هجرت اليمن بعد انهيار سد مأرب ، ونزلت في حوران، ومن ثم انتقلت الى لبنان ، وذلك منذ أربعمائة عام •

ومن مئتين واثنين وثمانين عاما ، نصب الامير أحمد معن حاكم الجبل اللبناني ، كمالا بن المنذر الاول شيخا على المحيدثة ، وعن الشيخ كمال توارث المناذرة في لبنان لقب « الشيخ » •

الشيخ ابراهيم المنذر

بقلم : عزة شور

تفتحت على نور الحياة عينا شيخنا الفقيد ، في بلدة « المحيدثة » في اليوم السابع من شهر حزيران من عام ١٨٧٥ ، ولقد ولد من أبوين كريمين هما : ميخائيل بن المنذر الثالث ، وهيلانة مفرج نسيبة أبيه •

وفي بلدة « بكفيا » البلدة الوديعة الحالمة ، وفي أحضان جمال فذ الفتون ، تجلى في تلال من الصنوبر فواحة الأريج ، وعلى ألحان الجداول المتدفقة في الاودية كأنها خيوط تخاط بها أبراد الحقول السندسية ، نشأ وترعرع أديبنا الشيخ •

وفي مستهل حياته بدأت تغمر المدارس أرض لبنان ، فأدخله أبوه مدرسة بلدته ، فظل يتدرج في صفوفها بنجاح وتفوق • ومن ثم أرسلاه الى مدرسة « قرنة شهوان » فكان فيها مثالا للتلميذ النجيب • وقد تركت هاتان المدرستان أثريهما العميقين في نفسه • ومن ثم عكف يدرس على العلماء ، ظاهر خير الله ، وسليم باز ، وجرجس صفا ، فكان متفوقا أدبا وعلما على الاقران •

وما كاد يبلغ أشده ، ويظهر نبوغه ، حتى بدأت المدارس في لبنان ، تتوسط في الحصول على قبوله فيها • وهكذا كان ، فما ترك مقاعد الدرس حتى صعد الى منابر التدريس ، في مدارس : النبي الياس ، والشوير الوطنية ، والثلاثة الاقمار ، وزهرة الاحسان ، والبطريركية ، والفرير العلمانية ، وأخيرا في دار المعلمين وفي معهد « قرنة شهوان » • ومن ثم أحب ان

يستغل لنفسه ، فأنشأ في المحيدثة مدرسة « البستان الداخلية » وذلك منذ خمسين سنة . ومع ذلك كان يراسل بعض الجرائد في المهجر ، ويكتب في المجلات والصحف اللبنانية . كتب في عشرين صحيفة وفي خمس عشرة مجلة وقد خصص من وقته الثمين قسما للتأليف ، فألف « كتاب المنذر » في مفردات اللغة ، نشر منه الجزء الاول ، ووضع للتمثيل خمس روايات ، طبع منها « أسير القصر » ، وبعض خطب مطبوعة على حدة منها : « الدنيا وما فيها » و « قلب الوالدين » . ونظم ديوانا كبيرا طبع منه ديوانا صغيرا . والى جانب ذلك اهتم بتأسيس المجمع العلمي اللبناني وعزه سنوات .

الصفحة الثانية من صفحات حياته :

هذه هي الصفحة الاولى من صفحات حياة أديبنا الكبير النابغة المرحوم المنذر ، وأما الصفحة الثانية فهي اشتغاله في المحاماة سبع سنوات . كان في المحاماة واقفا جهوده ، ونفوذه ، وقلمه على نصرة الحق لانصاف مهضومي الحقوق ، وايصالهم الى حقوقهم المسلوبة . ولهذا كان مكتبه يستقبل صباحا ومساء الموكلين الكثيرين الذين كانوا يأتونه من جميع انحاء لبنان . وقد كافأه اللبنانيون على جهوده فانتخبوه نائبا عن جبل لبنان ، أربع مرات ، من عام ١٩٢٢ الى عام ١٩٣٧ ، ثقة منه به اولا ، وحفظا لحقوقهم ثانيا ، وتلبية لندائه اخيرا ، حيث قال ، من قصيدة بليغة :

« ما الحر من للدواهي لان جانبه
وما ألأ القوة الخرقاء مكارا »
« الحر من ذاد عن أوطانه وله
قلب تلامس منه النور والنارا »
« بالنور يهدي الذي ضل السبيل على
جهل وبالنار يصلي كل من جارا »
« أهل الحمى اتعظوا بالدهر وانتبهوا
فان في الشعب أخيارا وأشرارا »
« وللوشاية أعوان ذوو سفه
لا يأمن الجار من افسادهم جارا »
« والشعب ان لم يكن للمخلصين به
كرامة ماد ركن المجد وانهارا »
« اليكم مجلس النواب مرجعه
فأنكروا سعي أهل الذل انكارا »
« لا تنتقوا نائبا ما لم يكن يقظا
لا يغفل الطرف منه كيفما دارا »
« لا ترتقي أمة في الشرف غافلة
ما لم تجد بين أهل العلم نوارا »
« أعني بهم من يثيرون النفوس على
أهل الجهالة لا يأتون أوزارا »

. . . . .

ومن دراسة هذه القصيدة ، نرى أنه شاعر قوي الديباجة ، موحد الموضوع ، قادر على اظهار الجمال في شعره ، متمكن من اللغة من حيث النمو والبيان . لا نبو ولا ابهام ولا تعقيد ولا قلق . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، نرى انه يحمل رسالة في هذه القصيدة ، وفي قصائد غيرها كثيرات ، هي رسالة الاصلاح في يقظة « متصفة » بصفتين اثنتين : أولاهما هي انتشار روح الاستياء الشديد ، وثانيهما هي روح التعاون المشترك .

كان يريد للبنان عهدا وارف الظلال ، عهدا منيرا متدفقا بالمجد في ظل مجلسه النيابي . لذلك كان يكره أن يرى الاكاليل تضفر لرؤوس الرياء والخداع والتدجيل . كان في المجلس النيابي صاحب الصوت الحر المدوي في الدفاع عن حقوق أبناء لبنان ، وكان يريد للبنان عهدا حرا مستقلا رفيع الجانب بغير الاجانب ، في حين كان سواه من زملائه النواب معرضا للحملات العنيفة من أصحاب الاقلام الحرة . وكيف لا يكون معرضا لأشد من الحملات ، نائب يخون بلاده وضميره ويضرب عرض الحائط بشرف الرسالة الملقاة على كاهله ؟ ولله در شاعر العروبة الشاعر القروي حيث صب جام غضبه على رؤوس أعضاء المجلس النيابي آنذاك باستثناء شيخنا المنذر . قال بعد أن أشاد ببطولة ابطال الثورة السورية وقائدها المغوار سلطان باشا الاطرش في قصيدة بليغة رائعة ، منعت من دخول البلاد السورية في وقتها ، قال منها :

. . . . .

« لا لتلقوهم بالملام فانهم
جلسوا وهل نخبوا الكي لا يجلسوا ؟ »
« والله لولا « منذر » للعنتهم
فليحي شاعرنا الجريء الكيس »
« وليحي كل مدافع عن قومه
وبلاده وليسقط المتفرنس »

• • • • •

وبعد النيابة تولى القضاء في محكمتي المتن وكسروان • فكان قاضيا رزينا حكيما فهيما أمينا • ومن ثم انضم الى محفلي صنين والسلام ، وتولى رئاسة محفل بيروت •

واعترافا بفضله أقام له تلاميذه الكثيرون بالاشتراك مع أدباء لبنان وعلمائه يوبيلا ذهبيا ، قلده فيه وزير التربية الوطنية وساما رفيعا ، والحفلة أقيمت في بلدة « بكفيا » في البلدة التي نشأ فيها ودرج من الحداثة الى الشباب • وفي تلك الحفلة أنشد شاعر الفيحاء رائعته التي امتدح فيها نوابغ البلدة وتغنى بأمجادهم ، ثم انتقل الى مدح الشيخ المنذر ، فوصف جهاده وعلمه وفضله ، ومكانته في عالم الادب ، في قصيدة تقع في اثنين وستين بيتا ، قال منها :

« شارف الامس وسل عن عصبة
زحزحوا عن طلعة الضاد القناعا »
« نظموا من درها العقد الذي
زان جيد الفكر أحقابا تباعا »
« التصانيف التي جادوا بها
روضت غامضها العاصي فطاعا »
« بأبي الدارج حيا منهم
ينصب الروح عن الضاد دفاعا »
« ذكر « ابراهيم » ما أنفذه
طاف بالالباب واحتل السماعا »
« جهد لو أنصفوه عطفوا
كبد الحرص عليه والذراعا »
« غالب الايام في تلقينها
ومشى بالعبء يبلوه اضطلاعا »
« مرهف العزمة في الحرص على
درة الصحراء يكسوها التماعا »
« يرضع النشىء كما ترضى العلى
حبها والحب ما كان رضاعا »
« مترعا البابهم من سحرها
عارضا ما دق من حسن وراعا »

• • • • •

« خشع المنبر واهتز لها
صيحة « المنذر » زجرا ونزاعا »
« كزئير الليث وثابا وكالعا
صف المنقض والسيل اندفاعا »

الى أن قال :

« لا يبالي وهو في جولته
منسف الذروة أم وطد قاعا »
« ومن النكتة ما يرسله
مالئا بالعظة القلب الرواعا »
« تتلقاه رؤوس منشوة
ورؤوس تتلقاه صداعا »
« ينشر الحسن بيانا ومن
الوجنات الحمر يجنيه افتراعا »

• • • • •

« جرأة تزخر بالصدق الى
رقة في الناس يزجيها متاعا »
« ووفاء طاب لونا وشذا
وسمو فاض حلما واتداعا »
« عطرات سكن الزهر الى
طيب رياها وغنى وأذاعا »

• • • • •

الصفحة الثالثة :

وهذه صفحة ثالثة من صفحات حياته التي تدل على رسالته الاصلاحية • رأى وهو العلامة اللغوي المدقق ، أن مفردات اللغة كثيرة لا تقع تحت الحصر ، وأن كثيرا منها غير أدبي يجب طرحه من معاجمها • ورأى أن فروع الصرف والنحو والعروض والبيان ، لا تزال كما

هي منذ وضعها الأئمة الاولون ، لا تسلم من الخطأ الذي أبقوا عليه وسموه شاذا ، حرصا على كرامة القائل .

ورأى أن اللغة في أمة هي الوسيلة لحفظ كيان تلك الامة ، ومتى ضعفت يفقد بنوها جامعتهم ورابطتهم . وما ماتت لغة في صدور رجالها همة وفي قلوبهم شعور ، وفي رؤوسهم أدمغة تفكر في المصير . رأى كل ذلك فأرسل الى المجمع العلمي العربي في دمشق ، في السنة الحادية والعشرين بعد التسعمائة والالف ، رسالة لغوية يستطلع رأيه فيها ، وقد حصر مهمته في ما يلي :

أولا – طرح الوحشي من الالفاظ التي لاتستعمل .

ثانيا – اثبات الالفاظ المستعملة التي لا تخالف القياس والفصاحة .

ثالثا – نحت الالفاظ الاجنبية على القياس العربي المأنوس .

رابعا – وضع ألفاظ عربية فصيحة للمسميات العلمية الحديثة .

وزيادة على ذلك ، قد أورد استيضاحا قال فيه :

ما رأيكم في بابي الشذوذ والقياس في اللغة ؟ أو لا ترون التعديل في أصولها ومفرداتها ، بحيث يحذف منها ما لا يفيد ولا يرد في الاستعمال ، تسهيلا للكتاب ، ولطلاب هذه اللغة الفصحى ، أم ترون بقاء القديم على قدمه ؟ الى غير ذلك . وقد ذكر في كتابه ، أنه لا يطلب أجرا ، ولا يدعي عصمة ، ولكنه يرغب من صميم فؤاده ، في أن يحفظ بنو وطنه مكانتهم في حفظ لغتهم وتهذيبها وتقويم أود كتابها وشعرائها ، حرصا على سلامة معانيها ومتانة مبانيها .

وما كاد كتابه هذا يصل الى المجمع العلمي في دمشق ، حتى يجتمع أعضاؤه ليقرروا بالاجماع انتخابه عضوا مراسلا فيه .

ومن ثم أحب أن يكون في لبنان مجمع علمي ، يحذو حذو المجامع العلمية في البلدان العربية ، فهب يناشد الحكومة لكي تمد يد المساعدة قائلا لها :

« خليق بالمنطقة التي أنجبت من العلماء مثل اليازجي والبستاني والشدياق والخياط وزيدان ، وغيرهم ، أن يكون فيها مجمع علمي عربي ، يلف لف البلدان الأخرى في البلدان العربية » .

وقد أجمعت الصحف اللبنانية على تأييده ، شاكرة مساعيه ، وكذلك هب فريق من العلماء لنصرته .

هكذا كان يسعى لترقية الثقافة بايجاد المجمع العلمي ، داعيا لنبذ التعصب الديني ، في سبيل النهوض بأمته الى مصاف الامم الحية . ولم يمنعه مرضه في أيامه الاخيرة عن متابعة جهوده ، بل ظل يطالع ويكتب ويدقق ، وما جف قلمه ، وما نضب معينه .

لقد غذى أديبنا الفقيد الشيخ المنذر ، النهضة الادبية الحديثة ، بما ألف من نظم ونثر ، وبما ترك من جليل أثر .

الغاية من الكتابة هي الاصلاح ، والاصلاح كان قصد أديبنا الكبير . كتب وانتقد ناشدا اصلاحا لامة تاريخها تدفق مجدا . خسرناه عن ٧٥ عاما معلما ، وقاضيا ، ونائبا ، وأديبا ، وشاعرا ، وعالما ، وانسانا ، في كل ندوة وعلى كل لسان . خسرناه مؤمنا طاهر الايمان ، يقول وهو على فراش الموت في ساعاته الأخيرة للطبيب الذي كان يدفع في عرقه ابرة المخدر : « أتركوني دقيقة أريد أن اصلي »

ثم صلى في شهقة عميقة ذهبت به فما ذهبت بذكراه ، وأطفأت نور عينيه وما أطفأت من القلوب غصة الفقد ومن النفوس ألم الجرح . خسرناه وكم كنا متألمين لما رأينا محمولا على الأكف الى ظلمة القبر ، من كان يحمل محبة الناس وهمومهم في جوارح النفس .

وحضر مأتمه الرهيب في المحيدثة البطريرك الأرثوذكس والمطارنة الارثوذكس وكثير من رجال الاكليروس ، ورئيس الجمهورية اللبنانية معزيا بفداحة المصاب ، وأي مصاب !.

واعترافا بفضله ، وتقديرا لجهاده ، أقام له لبنان حفلة تأبينية كبرى في قاعة سينما الكابيتول في بيروت في ضحى الرابع من شهر حزيران من عام ١٩٥١ ، تكلم فيها كثير من شعراء لبنان وأدبائه معددين مزاياه الحميدة ، ضافرين دموعهم أكاليل وداع ، رحمات الله عليه .



لا الكأس مورد الهامي ولا الوتر
على مفاتن ربعي أينع الوطر

كرمى لعيني بلادي كل جارحة
مني غناء ولحن مترف نضر

من سدرة المنتهى للشعر مرتبع
ومن خمائل وحي الله منتشر

لو مس جبريل من عنقوده أثرا
لراح يقطف ما يلقى ويعتصر

بررت آثام نفسي يوم أرجني
من جنة الشعر ما يندى ويزدهر

وبت أسكب الهامي معتقة
عنادل الأيك من انفاسها سكروا

واين من نازف النجوى مزيفها
وأين من لين قلب الهائم الحجر

الحب والشعر في جنبي مهدهما
كلاهما بفؤادي الثائر الضجر

أرنو الى القدر المجهول اسأله
ماذا فعلت بأهل الشعر • يا قدر

لنا الهداية دون الناس ننشرها
ومن معابدنا الآيات والسور

ما في المجامر الا عودنا عبق
وفي المساكب الا وردنا عطر

نبادل الناس احسانا اساءتهم
ونغمر الذنب تحنانا ونغتفر

ونملأ الكون أطيابا ومعرفة
فمن صبابتنا النعماء والعبر

من مثلنا ولنا في الخلد متسع
تزهو الأرائك في ملهاه والسرر

نحن الذين كسانا الله حكمته
وبات اجهلنا بالشهب يأتزر

لا الشمس لولا وسيم من متارفنا
لاحت ولا هل لولا ليلنا القمر

على الهوامش ضوضاء منمقة
باسم الجديد قلاها السمع والبصر

من مولد العرب حتى اليوم ما غربت
للشعر شمس ولا عاثت به الغير

تلك المسارح لا والله ما حسبت
أعمال من عجزوا فيها كمن قدروا

من لم يته بتراث الأهل مفتخرا
فليت شعري بمن يزهو ويفتخر

قومي وان عبث الطاغي بموكبهم
لا ينبت المجد الا حيثما نفروا

يا موطن العرب لا مستك عادية
نحن الصفيون ما قالوا وما هذروا

غنيت عيدك حمدا هائئا وهوى
أسخى من الغيث اذ ينتقى وينهمر

لولا الجلاء وما بعد الجلاء لما
طاب الرحيق على مغناك والسمر

دنيا من الحسن نستجلي مفاتنها
أدنى المواطىء من حصبائها درر

رفت ستائر خديها فما اكتحلت
عين البطولة الا وهي تنحسر

بحبة العين أبرار شكت فسروا
حمر القواضب حتى اورق الظفر

لا يصبرون على ضيم اذا نكبوا
يوما وان نزلوا في معمع صبروا

يا موسم النصر في نيسان موعده
دانت بحرمتك الايام والعصر

فرشت ظلك نشوانا فكل غد
مستبشر باسم مخضوضل زهر

لم تدر عنك فرنسا ما ضمرت لها
حتى رأت كيف نجم السعد ينحدر

ملاحم المجد ما بحت صواهلها
في مسمع الدهر من اخبارها خبر

دارت فكل أخ في زحم ساحتها
عمرو • وكل أب من خلفها عمر

والصبر مفترش الأحشاء مؤتلق
والليل مرتعش الأضواء معتكر

ونشر حطين من انوائها أرج
وبوح صفين من اجوائها غزر

وللشهادة الباب مدلهة
وانفس بهواها العذب تنفطر

ومن ربا الخلد اصداء مرددة
يا من لكم تركت عرش العلا مضر

فضل الجهاد بنيل القصد مرتبط
ومبلغ النصر بالايمان منحصر

يا موطني يا ربوع الصيد ما اجتمعت
الا على ارضك الابطال والخفر

متى أراك جميع الشمل مزدهيا
وغاصب القدس عن مغناك يندحر

عهدي بركبك خفاق اللواء فهل
يصفو وانت جريح المهجة الكدر

يا للحواجز اهلي أصبحوا زمرا
وكيف تخلص من آلامها الزمر

لي في الحجاز أخ والرافدين أب
وفي الجزائر قلب هائم كدر

ومصر نخبة احباب أحن لهم
كمولع حن مشتاقا لمن هجروا

من الخليج الى اقصى المحيط دم
يذوب بالوحدة الكبرى وينصهر

يا موطني ملني صبري وها كبدي
من فرط ما أملت الأحداث تستعر

يا موطني وجراح القلب ما برحت
تنز من انفه الشكوى وتنفجر

اليك من أمسك الوردي مفخرة
لا ينكر البدو ما أعطته والحضر

عيدي اختيالك بالنعمى على دعة
ينفذ الدهر ما تهوى ويأتمر

نفسي وللوحدة العصماء انذرها
لا خيب الله من جادوا ومن نذروا

وجد الح بصدري فانتخيت له
أعب من نشوة الماضي واذكر

ما جنحت نسمة الاواطر بني
ريان نفحتها وانسابت الذكر

عيد الجلاء وهبت للعلا مهج
تمزق النجم اقباسا وتنتشر

وددت حمدك لكنني سبيت على
رؤى الجلالة ان الحمد يختصر

ورمت نشر القوافي فانثنيت بها
يطوف حولك اكباري ويعتذر

حسبي انحناءة عرفان لمن حزموا
على سناك ومن جدوا ومن سهروا

رياض شعري اغوتني فهمت على
قطف الزهور • ولكن فاتني الثمر

اللغة .. والقومية

بقلم : احمد الجندي

اعتقد ان كلمة (القومية) تشمل معاني كثيرة قد لا يمكن حصرها في اطار واحد ، واعتقد ايضا ان اللغة بالنسبة لكل امة ركن اساسي في بنائها ، وعنصر هام في تكوينها ، ولذلك فان الاعلاء من شأن لغة قوم من الاقوام انما هو اعـلاء لشأن القوم انفسهم ، وعلى العكس فان انحطاط اللغة دليل على عدم الاهتمام بالامة ودليل اهمالها الذي يؤدي الى تدهورها هي ولغتها سواء بسواء .

كان العرب يرون في لغتهم مصدرا قوميا ، وموردا فنيا في آن واحد ، وكانوا يتفننون بمآثر هذه اللغـة ويرون ان من المنح الكبرى ان يكون العربي شاعرا او خطيبا . لان الكتابة كانت شيئا ثانويا في تلك الايام ، حتى اذا نبغ شاعر من الشعراء احتفلوا به وكرموه تكريما ضخما يتناسب مع تقديرهم للموهبة الشعرية لانهم كانوا يحبون لغتهم ، والشعر اعلى مراتب اللغة قدرا .

فلما جاء الاسلام ارتفع شأن اللغة ، وكان القرآن معجزة هذه اللغة التي اظهرت محاسنها وعبرت عن فنها تعبيرا اذهل قريشا حتى آمنت بالرسالة المحمدية ، وكان القرآن المعجزة الاولى ، وقد قيل لكل نبي معجـزة تناسب مقامه ، فقد كانت معجزة موسى السحر لان عصره عصر السحرة ، ومعجزة السيد المسيح الشفاء لان عصره عصر طب ودواء ، ومعجزة النبي محمد تناولت اللغة لان العرب اهل فصاحة وبلاغة .

ولما عجز العرب عن محاكاة القرآن الكريم اذعنوا وآمنوا ثم اسلموا .

ويروى ان النبي (صلى الله عليه وسلم) كـان يفخر في انه عربي ، وان لسان اهل الجنة عربي ايضا وكيفما كانت صحة هذا الحديث فانه دليل على الاعتزاز باللغة ، وان الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يكن ينسى اللغة العربية حين كان يعظ بني قومه ويهديهم الى سبيل الرشاد .

ولقد احتج سيدنا علي احتجاجا شديد اللهجـة حين سمع الجارية تلحن في اللغة ونظر الى ابي الاسود الدؤلي نظرة فيها كثير من الدهش والاسف وقال له : انحه يا ابا الاسود ، الـكلام اسم وفعل وحرف فكانت هذه العبارة الاساس الذي بنيت عليه قواعد النحو فيما بعد ، كما يروي المؤرخون .

أتيت بهذه المقدمة لالفت النظر الى ما تعانيه لغتنا العربية العزيزة هذه الايام من الوهن والضعف والتخاذل بعد ان اصطلح الناس على التساهل في القواعد اللغويـة والنحوية بحجة ان هذه القواعد صعبة وانها عتيقـة لا تتمشى مع العصر الحديث كأن العصر الحديث عنوان للتفكك والتخلع واستسهال كل شيء في هذه الحيـاة للوصول اليه عن اقرب طريق دون الالتفات الى صحة هذا الشيء او كماله .

ان لغة المرء الصحيحة لا تولد معه ، لان اللغـة الصحيحة غير لغة الاستعمال الدارجة ، واقصد باللغة الصحيحة لغة الادب التي ورثناها عن آبائنا يوم كـانوا يتكلمون صحيحا وينطقون سليما ، فلما تقدم الزمن بهذه اللغة وتداخل العرب اقوام غرباء آخرون لم يتمكنوا من اخذ اللغة على وجهها الصحيح ، ولم يتكلفوا ذلك لانهم

غرباء لا تأخذهم باللغة شفقة ، ولا تلفتهم اليها غيرة او حنان ، وسرى الغلط كما يسري الداء ، وتفشى الخطأ كتفشي الوباء ، واخذ المشفقون يلمسون جانب الخطر فيحاولون دراءه ، ويرون الزيغ فيسعون الى ازالته او تقويمه جهد الامكان ، ولكن الزمن كان اقوى من كل ذلك والتبس الامر حتى على اصحاب النية الحسنة فجار لسانهم وانحرف ، ثم ساد اللحن او كاد ، وتلمس اصحاب اللغة طريقا للنجاة باللغة فاخذوا بتأليف كتب اللغة واول ما قاموا بتشكيل القرآن الكريم خوفا على كتاب الله ان يقربه الخطأ ثم راحوا يؤلفون الكتب في ضبط قواعد النحو والمعاجم لجمع الكلمات الصحيحة وتفريقها عن الدخيل والحوشي والاعجمي .

لقد تعرضت اللغة العربية لمصائب ونكبات سياسية لا عداد لها ، ولكنها صمدت وما زالت صامدة لان الخطر عليها كان اجنبيا وكانت فطرة الدفاع عن نفسها تحميها وتمنع الاجنبي من الاجهاز عليها . اما اليوم فالخطر افدح لانه داخلي ، ولانه منها وليس غريبا عنها ، وليس من المنطق ان يتقي الانسان جانب اولاده او يحذر من ابنائه واحفاده .

وما ظنك بقوم يقولون لك اليوم ان اللغة يجب ان تتطور ، وان هذه القواعد كثيرة مرهقة يجب اختصارها ، كما يجب الاكتفاء ببعض القواعد المقتضبة مع التساهل في ضبط هذه القواعد ، كأنهم نسوا ان مثل هذه (الاقتراحات) يجب ان تدرسها المجامع اللغوية لا اشخاص لم يستطيعوا الحفظ والدرس لانهم اضاعوا وقت الدرس والافادة في غير ما فائدة ، فلما افاقوا من غفلتهم وجدوا انهم لا يحسنون الكتابة ولا النظم ، ووجدوا ان الفطرة تدفعهم الى الكلام فلا يحسنونه ، وخجلوا ان يسجلوا الخطأ على أنفسهم قبل ان يتمحلوا له العذر فتقدموا بهذه الافكار الخطيرة يكيدون فيها للغة ويأتمرون بها ، وهم بعملهم هذا انما يكيدون لقوميتهم ويأتمرون بأمتهم .

ليس من الصعب العسير ان يعود هؤلاء الى كتب اللغة فيبدؤون درسها من جديد وهم لا شك واصلون الى غاية حسنة ان واتاهم الصبر ، وليس في هذا عيب على عبقريتهم ولا هناك ضير يعيب نبوغهم ، وليحسبوا انفسهم يدرسون لغة اجنبية اخرى تضاف الى معارفهم كما يفعل المستشرقون الطاعنون في السن مثلا .

انهم ان فعلوا ذلك خدموا لغتهم وخدموا قوميتهم وانهم لفاعلون ان شاء الله .

بقيت نقطة هامة الفت اليها النظر ، وهي ان هذه (الاقتراحات) التي يرمي اصحابها الى اضعاف اللغة عن طريق اختيار الطريق السهلة ، انما هي آراء صائرة للزوال ، لان الفن الصحيح لن يشتمل الا على الصعوبة في جملة عناصره ولا تزول هذه الصعوبة الا عندما يملك الفنان زمام فنه ، غير ان الوصول الى هذه المرحلة من الاتقان امر يقتضي تعبا ونصبا قد يستهلك العمر كله .

فلقد اقدم بعض الشعراء مثلا في بعض الامم الاجنبية على اختيار طرق ملتوية في النظم فأزالوا معالم القافية ولم يتقيدوا بالاوزان الشعرية ، واخترعوا هذا الذي يسمونه بالشعر المنثور ، ثم اوجدوا ما اسموه بـ (السيريالية) ولكن هذه المظاهر كلها قد زالت اليوم او قاربت الزوال واصبحنا نرى عند هذه الامم شعرا جديدا يناسب العصر من حيث معانيه ولكنه مكتوب باللغة القديمة ذاتها ، اللغة المحورة تحويرا بسيطا جدا لا يتناول جوهرها ولا يضعف من احترامها .

ولهذا فان المظاهر الجديدة في الادب العربي من شعر حر ، وشعر غير مفهوم ونثر كتب على صورة الشعر ، وشعر حرر على صورة النثر ، كل هذه المظاهر ستزول ولن تبقى الا في كتاب التاريخ كظاهرة لفترة من فترات الحياة الادبية في هذه البلاد .



شعر: اسماعيل عاقور

أفدي انزلاق العاج في جورب
خيطانه ، واللون ،من خطي ..؟؟

روحي على نيرانـه انسفحت
تجني لـذاذاتي بلا ضـبط ..

سـمراء ، ما للسـاق من نفق
ابعـاده تشتـاق في ربطي . !!

فكيـه مـن أسر يعـذبني ،
عند التقاء « الشيل بالحط .. »

وارمي بـه في مغنـم نهـم ،
حتى يـلاقني بـلا شرط ..!!

★ ★ ★

يا ساقهـا .. ما كنت في ولـه
لولا انضفـار الجورب الحنطي

أبحـر .. صباباتي على جسـد
تجتاح .. حتى ثنية الابط .. !!

خلجانك السمـرا .. بهـا غزل
فلاقترب...من غيرما .. أبطي..



لا ترفعيـه واعطني قسـطي
يا جوربا .. أطعمته خيطي ..!!

ساقاك ، قولي : ما همـا .؟ جزر
خضراء ، يشقى فيهما رهطي ...

ما زلت أحدوها .. فتغـرقني
أشياؤهـا بالجورب السبط ..؟؟

حتى اذا ما جئتهـا ارتعشت ،
في ربوتيك مرافىء الشـط ..

★ ★ ★

البحتري الشاعر

بقلم : علي الصارم

هناك .. حيث المنبسط الواسع من الارض يضم الى صدره مدينة كبيرة ، وحيث الفرات - على مقربة منها - يلقي عليها نفحات برودته عندما يخيم الليل فينسخ ثورة النهار العارمة ، وتخرج الحور من أخبيتهن يتجمعن هنا وهناك ، وتعلو الضحكات صادحة في أجواء الظلام المرعب تشقق أرديته .

في هذه المدينة الكبيرة تطلع الشمس على وليد جديد يحمل في لفائفه مجد منبج بل العرب قاطبة : جاءها أبوه عبيد بن يحيى من اليمن يتأبط سفر نسبه الكريم ليغرس الشجرة التي يتحاشاها الذبول ويتناءى عن ظلالها العدم ، جاءها لتكون منها انطلاقة كبرى تتحدث بها الاجيال ، وليخرج منها أبو عبادة الذي فتح على العالم العربي كنوزا من الجمال عز الا على قلمه تصويرها ، وعصى الا على خياله تأليفها .. فالطبيعة تنتظر الألق الذي يضاحكها على لسان هذا الغلام ، والمجد يترقب الشاعر الذي يغنيه ألطف أغنياته ، وطيىء تصيخ الى الصوت الذي يملأ آذان الدنيا .

ذهبت طيىء بسابقة المجد
على العالمين بأسا وجودا

هنا ولد البحتري ، وهنا نشأ وتعلم القراءة والكتابة وبدأ يقرض الشعر ، ومن هنا تنطلق العاصفة الكبيرة ، عندما يهبط الوليد حلب ، وقد ذاب على جبهته سبعة عشر ربيعا ، وتفتحت في أبراده براعم الشباب ، وتوثبت في قلبه الكبير روح الشاعر وملأ عينيه الامل والطموح . في حلب كونت أولى نظراته للجمال معنى آخر في نفسه ، ما كان يتصوره ولا يحلم به قبل أن ينزلها ، وقبل أن يرى علوة التي أصبحت احدى ملهماته الخيال .

لقد نظر اليها نظرة تدل على معرفة عميقة بالجمال ، نظرة ناقد مرهف الحس قادر على التمييز بين دقائق الاشياء ، فكانت ملء عيني اعجابه .

بيضاء يعطيك القضيب قوامها
ويريك عينيها الغزال الأحور
تمشي فتحكم في القلوب بدلها
وتميس في ظل الشباب وتخطر

فمن هي علوة هذه التي أحبها وشغف بها ؟ انها ليست بذات الحسب الرفيع ، وليس لاهلها أية سابقة في الفضل يحدثنا عنها التاريخ ، ولكنها فتاة كسائر الفتيات المغمورات ، كثيرا ما أعطت البيداء وجهها ، تجمع الوقود وترعى الشويهات ، وتبتسم لوجهها الجميل الشمس والقمر .

نعم لقد أحبها لجمالها ، والجمال لا يفتقر الى تسلسل النسباء فالظباء مذ كانت الظباء ، ولائذ البيد تنسب الى ما فيها من صفات جمالية تستملحها العين . الا ان علوة تفارق الظباء في بعض نواحي كان يستحسنها الشاعر :

مهفهف يعطف الوشاح على
ضعيف مجرى الوشاح فهضمه
يجد به الثقل حين ينهض من
ورائه والخفوف من أممه .

فهي الى جانب أنها نحيلة الخصر جائلة الوشاح ، فانها ثقيلة الارداف ، عندما تقصد الخفة في نهوضها يمنعها ثقل أردافها .

لم يقتصر البحتري على فن واحد من الشعر ، فلقد مدح تكسبا بعد أن صقل روحه معلمه الاول وتخرج على يديه . وعزم على الاغتراب كما فعل سابقوه فأصبح حلف أسفار دائما لايمانه العميق أن

القعود عن طلب الرزق جبن وضعف وهو - وان كرمت أحسابه - لا يرى الغنى بقومه ولا بجدوده .

يا نديمي بالسواجير من ود بن مع
ـن وبحتر بن عتود
أطلبا ثالثا سواي فـانـي
رابع العيس والدجى والبيد
لست بالواهن المقيم ولا القا
ئل يوما ان الغنى بالجدود

ولكنه رغم هذا لم ينس الحب ولا الحبيبة ، بل كان كثيرا ما تلم بخاطره تلك الصورة الاولى التي ملأت جوانب قلبه حبا صادقا لتلك التي ربطت على قلبها واكتفت بنظرات ظاهرها فيه الطمأنينة للحب وباطنها كذب وخداع .. وبديهي أن تكون كذلك ، فما أكثر الأسرات للرجل !؟ وأقل الآسرين لهن !؟ انهن ينتظرن ويبتسمن ويتكلمن بأفواههن أو بأجفانهن .. ولكل نظرة معنى وفي كل ابتسامة خديعة ولكل كلمة رمز معمى ولغز مجهول ؟ وأبو عبادة ضاع بين هذه التظاهرات كما ضاع غيره ، وفني بين هذا اللغز والرمز .

لم يزل الشاعر يذكر الشام ويحن اليها طوال اغترابه وارتحاله .. فلقد ذكرها وهو في منزله على نهر دجلة ، يشهد كل لحظة تدافع أمواجه ، وينعم بمرأى النخيل وغناء الاطيار .

حبذا العيش في دمشق اذا ليلها برد

فمتى كان للبحتري أن يكره العراق وسر من رأى وهو في رعاية الخليفة المؤتمن عليها المتوكل ؟! متى كان له ذلك وهو في أمس الحاجة الى من يتعهد نبوغه ، ؟ في أمس الحاجة الى من يساعده على بلوغ الغاية التي تختلج بنفسه . متى كان له أن يقول ؟ .

واشترائي العراق خطة غبن
بعد بيعي الشام بيعة وكس .

متى كان له أن يقول هذا ؟ لولا أن خطوبا نزلت به وآلاما كان يكابدها في حياته من ناحية العيش الذي يريده . ونفسه الكبيرة تأبى له الهوان والضعة ، تأبى له الا أن يكون كما يريد له طبعه العربي وخلقه ونزعته ، والا فما دعاه لزيارة (المدائن) عاصمة الفرس

صنت نفسي عما يدنس نفسي
وترفعت عن جدا كل جبس
وتماسكت حين زعزعني الدهـ
ـر التماسا منه لتعسي ونكسي
بلغ من صبابته العيش عندي
طففتها الايام تطفيف بخس
وبعيد ما بين وارد رفه
علل شربة ووارد خمس

لقد كانت نفسه الكبيرة ترى المدح ذلا ، ولكن لا بد من اللجوء اليه ما دامت الحالة هكذا ، واتخاذه اياه شرعة وسبيلا يسلكه للعيش ... وربما ساق اليه آلاما كبارا أزرت بحالته ، وخطوبا عظيمة نزلت بساحته ، وهذا مما لا شك فيه . والا ما كان لقوله :

(ضنت نفسي عما يدنس نفسي ... الخ) معنى أبدا ؟ وان في الابيات الآنفة الذكر للحق الذي لايتطرق اليه الشك ، ان الممدوحين عامة ما كانوا يوفون الشاعر حق مدحته . وذلك لاحد سببين : اما انهم لا يفهمون ما يقال بهم ، واما انهم يفهمون لكن الأثرة تتغلب عليهم ، فيحصل اعطاؤهم قليلا تافها . وهذا ما ذكره البحتري نفسه في قوله : (بلغ من صبابة العيش ...) واذا لم يكن هذا ولا ذاك ، فليس الا ان النظرة السياسية كانت تقتضي على العظمات بتقريب من لا قيمة له لنفاقه وخداعه .. وأبو عبادة يرى نفسه بعيدا عن هذا كل البعد ، لا يقبله مطلقا ولو ألهب الظمأ لهاته وأنضج الجوع كبده .

واشتغل البحتري بالمدح . ولكن مدحه كان يتفاوت؛ فبعض قصائده أجود من بعض ، ولكنه كان يعتمد في كل ما يقول على السلاسة والرقة ، فاذا فخر غيره بضخامة المعاني ورائع التصوير ، فخر هو بأسلوبه:

ومعان لو فصلتها القوافي
هجنت شعر جرول ولبيد
حزن مستعمل الكلام اختيارا
وتجبن ظلمة التعقيد

وركبن اللفظ القريب فأدركن

بـه غـاية المـراد البعيـد

واكثر من مدح في المتوكل خاصة ، وكان مجيدا في كل مدائحه له ، لا سيما رأيته التي يقول فيها :

(ولو ان مشتاقا تكلف فوق مـا

في وسـعه لسعى اليك المنبـر)

ولكن بيتي أحمد بن عيسى بالمستعين كانا أرق وألطف عندما قال :

ولو أن برد المصطفى اذ لبسته

يظن : لظن البـرد أنك صاحبـه

وقال ، وقـد أعطيته فلبستـه ،

نعم • هـذه أعطـافه ومنـاكبه

أما وصفه • فهو الآيـة الكبرى في سمع كل أديب أو متذوق للادب • وما دام غرضنا البحث في وصف البحتري ، فلا بد لنا من الوقوف معه في كـل مكان يقف به ، لنشهد الطبيعة الصافية يمر عليهـا فينطقها ، أو يستلهم جمالها فيجريه شعرا أرق وألطف من الطبيعة •

فلنقف الآن معه أمام ايوان كسرى ، ولنستمـع اليه يترجم تلك الصور التي أتقنها الصـانع ، وألقى عليها من روحه نفحة الجمال والفن • فنحن وايـاه أمام صورة انطاكية في الايوان ، أمام الجيشين المتقاتلين من فرس وروم ، أمام كسرى أنوشروان تخفق من فوقه الراية الكبرى ، التي تبلغ عشرين ذراعا طـولا وعرضا •

فاذا مـا رأيت صـورة انطـا

كيـة ارتعت بين روم وفـرس

والمنـايا مواثـل وأنوشـروا

ن يزجي الصفوف تحت الدرفس

من مشيح يهوي بعـامل رمح

ومليـح من السنـان بتـرس

تصف العيـن أنهم جـد أحيـا

ء لهم بينهم اشاره خـرس

يغتـلي فيهـم ارتيـابي حتى

تتقـراهم يـداي بلمـس

نحن لا ننظر الى البحتري كشاعر بلغ الذروة فلا يرقى اليه التأويل ولا يبلغه القياس • فلقد كان في عصره من هو أشعر منه ، ضخامة في المعنى وجودة في السبك ، وبراعة في التصوير • ولكننا ننظر اليه كشاعر وفنان ، أوتي قوة في الوصف ، وقدرة يسيطر بهـا على الاذهان • فأبياته هذه بعض الامثلة التي نضربهـا على تصويره الحي • وهو مع هذا فانه في منزلة مرموقة بين الشعراء • على أن أبياته هذه تكاد تكون خالية من الصور البيانية ، لان الشاعر لم يستعمل خياله في نقل الصورة ، بل تركها كما هي ، لذلك رأينـا الايوان الذي أوحى والبحتري هو الذي بلغ الوحي كما تلقاه ، ولمحنا الفن والجمال في التصميم والتصوير الاولين لا في النقل • أرأيت قوله :

تصف العيـن أنهم جـد أحيـا

ء لهـم بينهم اشـارة خرس

انها صورة تبرز الذوات والرسوم ، فيلمحهـا القارىء بعين العقل كما هي ، جامدة لا نطق بها ولا حركة ، ولكنه استعمل خياله في البيت الثاني :

يغتـلي فيهم ارتيـابي حتى

تتقـراهم يـداي بلمـس

فهو مع علمه اليقين انها صورة جامدة لا حيـاة فيها ، يرتاب أشد الريبة ، فيندفع بيد الشاك يتلمس هذه الصور • أما تنازع عيني الشاعر وأفكاره ، فخيال رائع جدا ، زاد في روعته وجماله نزوعه الى اليقيـن وتخلصه من الشك بواسطة لمس اليد ، ولهذا وجدنا البيت جميلا يبعث في النفس ارتياحا كبيرا لهذه الرقة والسلاسة •

ولا بد لي هنا من عرض بيت من أبيات هـذا الشاعر الكبير في الغزل •

قال : أضرت بضوء البدر والبدر طالع

وقامت مقام البـدر لما تغيبـا

فالبيت على جماله ورونقه، وسهولته وقــرب تناوله، هو من الشائع المأخوذ من لغة العامة، فكثيرا ما لاكت أفواه الشعراء هذا المعنى بمثل هذه الالفاظ، ولكننا عندما نحلل البيت نجد (الاضرار بضوء البدر) هو حصول نقص في ذات الضوء كالشحوب للجمـــال والذبول للورد، حيث القوة موجودة بمن فعل الاضرار بالضوء، اي ان وجهها لما بدت أحال البدر الى ضعف ووهن • وأما قاله (وقامت مقام البدر لما تغيبا) يختلف تماما عن قوله في صدر البيت، حيث أنه قد أبقى الشاعر وجودا للبدر مع حصول الضرر بضوءه، وفي عجزه أتى بالبدلية عنه، اي اذا غاب البدر طلعت هي، وهـو عدم الوجود للبدر

ولنترك الايوان ينحت منه تقادم العهد، ويأكل من روائعه العدم، وننضي عن غزله ورقته، لنترك هذا وذاك الى بركة المتوكل، حيث نرى الماء متدفقا كأنه وفود من الخيل، وحيث نأخذ منه البيان الساحر والتعبير الصحيح •

كأن جن سليمـان الذين ولوا
ابداعهــا فأدقوا من معانيهــا
فلو تمر بها بلقيس عن عرض
قالت: هي الصرح تمثيلا وتشبيها
تنصب فيها وفود المـاء معجلة
كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضـة البيضــاء سائلة
من السبائك تجري في مجاريها
اذا علتها الصبا أبدت لها حبكا
مثل الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس احيانا يضاحكها
وريق الغيث أحيـانا يباكيهــا
اذا النجوم تراءت في جوانبهـا
ليلا حسبت سماء ركبت فيهــا

هذه الابيات عندما ننظر اليها نجدها تناهت الى غاية من الجمال بأسلوبها وفكرتها وطلاوتها، أضف الى ذلك اكثار الشاعر من الصور البيانية كالاستعارات والتشابيه الحسية وغير الحسية، بينما وصفه للايوان قد فقد هذه الناحية فقـدانا تاما، حيث اكتفى الشـاعر بنقل الصورة كما هي لا تكلف بها ولا عناء •

أما هذه الابيات الاتية، في وصف الرياض، فهي تمثل للعين الصورة الكاملة لتلك الروضـة التي ملأت نفسه وعينه جمالا وسحرا

هذي الرياض • بدا لطرفك نورها
فأرتك أحسن من رباط السندس
ينشرن وشيا مذهبـا ومدبجـا
ومطـارفا نسجت لغـير الملبس
وأرتـك كافورا وتبـرا مشرقا
في قائـم مثـل الزمـرد أملس
متمايل الاعنــاق في حركاتـه
كســل النعيم وفتـرة المتنعس
فاذا طربت الى العيون وغنجهـا
فأجل لحاظك في عيـون النرجس

أرأيت كيف اعتمد على الواقع في شعره، خاليـا من التكلف والتعقيد، وسما بك الى غاية بعيدة، عندما نقلك بكليتك لتغيب في المعنى الذي قصده، فرأيته وقد أصبح هو بسمة ساحرة على شفاه الزهور، ونفحة عباقة مع العطر، وبريقا متوهجا في التبر • اقرأ معي – اذا أردت – قوله:

متمـايل الاعنــاق في حركاتـه
كســل النعيم وفتــرة المتنعس

لقد صور الزهر بوضعه الطبيعي منكس الرأس لعبت بقاماته النسائم فأحدثت به حركة كسلى فاترة • وهل كان للقرائح أن تجود بأحسن من (كسل النعيم وفترة المتنعس)

ان البحتري لا يبرح عن الخلود، يعيش في كل ذوق أدبي ويسمر في كل خاطر، ومن كان كذلك فحرى به ألا تبلغ وصفه الاقلام، وألا توفيه حقه الأفكار، عاش متجولا يبني للأجيـال بعده من تفكيره ووعيه ما جل وعظم، وانه وان أخذ عليه النقاد بعض الأخطاء – كما ذكر في الموازنة – ما فتىء انسان عين الشعر العـربي سلاسة ورقة وجمالا •

صلاة من منزل التعاسة..

شعر : يوسف الحاج

١

ربي هبها روحا .. خلصها من أحزانها
قذفتها أشباح السكر
للزوج الآني .. للتنين ..
للوحش الغارق في آبار الطين ..
عمدها في أردنك ، في فوضى فجر
الطفل البكر ينجيها ..
من سقطة حلم ، من دوار .
هبها الطفل قبل الدار .
لا تجهضها ..
ملكوتك في أحشائها
يعنو صمتا وحشي الأبعاد .
دعها تضمها في مزود
مصنوع من ورق الغابة
مغسول بالكحل الاسود
دعها تغرق
في صرخة اعصار أزرق
فتمجد اسما منسيا ..
نشرا .. ميلاد استمرار النسل المطلق .
أنت المهمل :
كن معجزة
كن طفلا في رحم امرأة عاهر ..
كن نورا ،. نارا في رجل داعر ..
لكن .. كن معجزة .. أنت المهمل ..!

٢

ربي هبها روحا .. خلصها من أحزانها
كن نافذة
يتلهى بشرفتها الاطفال ..
كم كنت محبا للأطفال !!

٣

أمر .. فلا لثغة .. لا سؤال
ولا ضوء نجمه
وليس هناك « أمير »
تهدهده الام .. تعطيه حلمه
ولا نأمة .. لا صرير
يزغرد تحت السرير
سوى الثلج يندف خلف المحال

٤

ألصمت وجدراني والمنفضة
فيمنزلها . جثث الصلبان
والصورة أقعت في الموقد
لهب قدسي ، لا ينشد
الا الأحزان

٥

« أطفال » الحي يناغون الباب الموصود :
« الله غفور لا يظلم » .
في اللوح الاسود منقوش :
« الله غفور لا يظلم .. » !؟

في المعبد

شعر فاروق مردم بك

كتبت بين آذار ونيسان ١٩٦١ وأعيد النظر
في بعض أبياتها مؤخرا .

★ ★ ★

فتحت في خفق الرياح مدى
وركزت في أعماقها وتدا
وركبت في ظني جناح هوى
متدافع ينساب متقدا
يجري سعير النار في دمه
أمدا وتجري خمرة أمدا
وشددت أوتاري لعل بها
وهنا وأمطرت الحياة ندى
فتضمخت بالعطر بادية
وتلفتت أخواتها حسدا
ورمت بي الايام صاخبة
في هيكل خلف الغمام بدا
تطغى على الدنيا حجارته
وتجيل في اطرافها الكمدا

في ربية نشرت غلالتها
من فوقه فانضم وانعقدا
والصمت يزدرد المكان فان
شخصت له أقدامي ارتعدا
واهتز محموما ليبتلع
الرؤيا وينشب في الصميم مدى

. . .

وغمست في غيل الضباب يدا
وأخذت أقرب كلما بعدا
ورأيت قوما عيشهم شفة
جفت وجسم مرهق همدا
ناموا على الاقذار في خور
والرعب في نظراتهم جمدا
وحنوا الظهور فكل جارحة
أفق ترنح أو مدى فسدا

٦

ذو اللحية يبحث عن أخرى
تجثو خلف الكوه :
ـ أحببته يا أبي
أعطاني ذاته في نشوه
واساقط من فوقي التفاح ..
كانت دربي أبدا ملأى بشذا التفاح ..

٧

« أحداث » الحي يدقون الباب الموصود :
أخرج يا ذا اللحية ..
اسمع ناقوس الزاني :
ها .. جاء اليوم الموعود !

٨

تحب اعتراف الفم للفم
وجرح الأقاح
ودروس الوصايا ..
جريمتكم عبئها في دمي :
ربي هبها روحا
خلصه امن أحزانها
من زوج آني
من تنين ..!

متحجبين زهــوا بذلتهــم
ويلقبون حجــابهم رشــدا
وتلملمــوا فالجــو منطفيء
والمــاء يأسن كلمــا ركــدا
وتقطرت شـهب السماء دمــا
وزوت فمــا وتصلبت كبــدا
لا نسر في السفح الكسـيح ولا
أقمــار تجلو الملعب الحــردا
ربــان جنــون ومنعفــر
يبـكون ان قامــا وان قعــدا
وتجمعــوا فانهــد صــفهم
جسدا يساند في الكرى جسدا

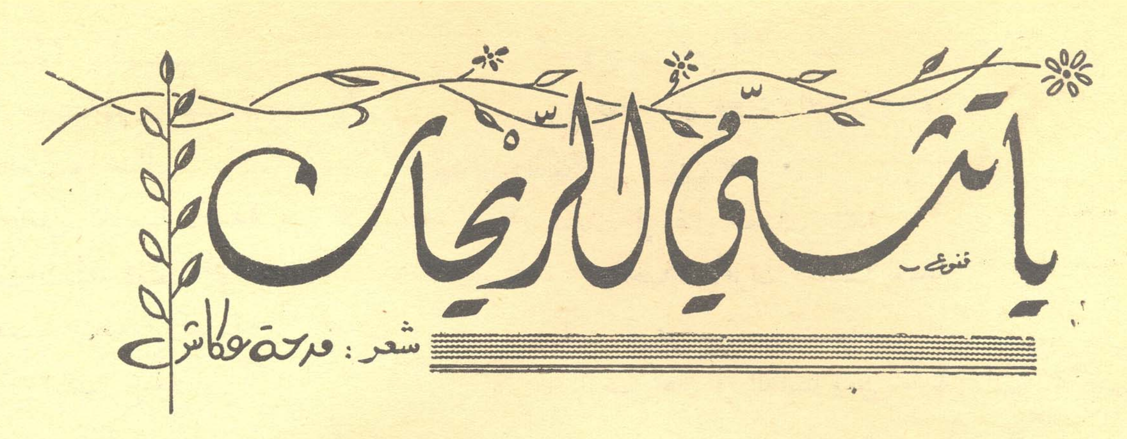
• • •

وغمست في غيـل الضباب يدا
وأخــذت أقرب كلمــا بعــدا
فمجامــر بهت عــلى مهــل
كان الرحيق بهــا وقــد شردا
وئـدت ملاحمهــا وما عرفت
أن الزمان وراءهــا وئــدا
فــدعت اليهــا معشرا خلقوا
لعبــا مشوهــة المنى وددا
ان عمــرت يمنــاهم بلــدا
خــربت لهم يسراهم البلــدا
أو نفضت ريــح النجود ردى
غضبوا ودسوا في الظهور ردى
كـل هنــا متبتــل هــرم
في رعشــة مزهى بما عبــدا
عطشــان تلتفت الدروب لــه
فيسر ان وردت كمــا وردا
وذكــرت كوخا في ذرى جبل
سجدت له الجلى وما سجــدا

كــوخ وينتشر العبير بــه
والشمس صوت والغدير صدى

• • •

وغمست في غيل الضباب يـدا
وأخــذت أقرب كلمــا بعــدا
ورأيت فرعونــا يمجــده
مــن هان في الدنيا ومن حقدا
متجبــرا حــرقت أصابعــه
مــن كوكب حــان على بردى
الســوط ثعبــان يفح ولا
يروى بما أدمى وما اضطهدا
والحور باك والشــذى بــرم
والمخصبــات تفرقت بــددا
وتهــدل الصفصاف من حزن
كالأم تــدفن الثــرى الولدا
والمــاء مختنق الحصى تبدق
تذروه زوبعة الخنوع ســدى
وسـمعت في جنبيــه ان لــه
يومــا تمج شفاهه الزبــدا
ولمحت في الغلس العبوس فمــا
جمــع الضياء وهــزه وشــدا
فعــرفت ان الملتقى وطــن
لا يستنيم الى الخنــا أبــدا
وغمست في غيل الضباب يــدا
وأخــذت أقرب كلمــا بعدا
اليــوم معتــزل وغمغمــة
وغــدا ترف الخافقات غــدا
ويرى حواة الامس معبــدهم
نهــار ان عــددا وان عــددا
متحــرق الجفنين مرتجفــا
لم يدخــر مــن أهله أحــدا



قيل عني أهوى الجمال وأشدو
لمغاني الجمال من كل فن

وعيوني وقف على كل حسن
لا تسل عن مفاتن الحسن عيني

كم تغنيت لابتسام العذارى
والغواني وكل ظبي أغن

وتغنيت للورود ولليل
وغنيت كل سهل وحزن

والعيون التي وهبت لها رو
حي زمانا وعلمتني التغني

. . .

تلك أشياء عهدها قد تقضى
وطواها جمال وجهك عني

أنا مذ داعبت جفونك آما
لي حرام ان ضم غيرك جفني

أنت يا من أيقظت أحلى أماني
فتاهت بين الرضا والتجني

وتركت الفؤاد نشوان هيمان
يغنيك ألف لحن ولحن

أنت خمري في عصفة اليأس
في القلب وكأسي اذا أديرت ودني

انت ان لحت في مطاف خيالي
غبت عن خاطر الزمان وعني

أنت ! ما أنت غير نفحة الطا
ف تهادت سكرى فراديس عدن

لك قلبي وهل يقدم للحسنا
ء احلى من قلب صب يغني

يا تثني الريحان بعتك روحي
طاب منك الهوى وطاب التثني

لك ، للحسن ، للجفون الكسالى
ما سيروي الزمان عنك وعني

الذكرى الألفية للدولة البولونية

في هـذه السنوات الجارية الممتدة بين ١٩٦٠ – ١٩٦٦ ، يحتفل البولونيون ، في بولونيا وفي شتى أنحاء العالم ، بالذكرى الالفيـة لتأسيس الدولة البولونية ، وللتراث القومي البولوني •

فما الدافع الى الاحتفال بتلك الذكرى ؟ وما هي أصول الدولة البولونية ؟

ان السنوات ١٩٦٠ – ١٩٦٦ ليست مطابقة لوصول أجـداد البولونيين الحاليين الى الارض التي تعـرف باسمهم • فتاريخ الأقوام البولونيين يرجع الى عصور أقدم بكثير ، اذ ان المؤرخ والجغرافي اليوناني الشهير بطليموس يورد في مذكراته اسم مدينة « كاليسيا » ، وما هي الا مدينة « كاليش » الحالية التي احتفلت بمـرور ١٨٠٠ سنة على تأسيسها • أما آثار مدينة « بسكوبين » فترجع الى ٥٠٠ سنة ق•م• ولكن هذه السنوات الست للذكرى الالفية تحدد الفترة التي أسست فيها دولـة بولونية مركزية • ففي الفترة الواقعة بين سنتي ٩٦٠ – ٩٦٦ ، ظهـر بطل مـن قبيلة « بولان » وهو الامـير « ميشكو » وأسس دولة بولونية مستقلة •

والجدير بالذكر ان العلاقات البولونية – العربية أخذت تتوطد منذ تلك الحقبة ، وازدادت متانة ورسوخا عبر القرون الطويلة ، ولدينا في مذكرات تاجر عربي خير دليل على ذلك ، وهذا التاجر العربي هو ابراهيم بن يعقوب ، وقد كتب في مذكراته التي ترجع الى سنة ٩٦٦ يقول : « فأما بلد ميشكو فهو أوسع بـلاد السلافيين الغربيين » • وبرهان آخر على توثق العلاقات البولونية – العربية في تلك الحقبـة ، الكنز الثمين الذي يضم مجموعة من النقود العربية ، وقد عثر عليه مؤخـرا في بولونيا ويرجع تاريخه الى ما بين ٩٩٠ – ٩٩٥ •

الا ان الدولة البولونية الفتية منـذ الايام الاولى لنشأتها وجدت نفسها في نضـال مرير للدفاع عـن استقلالها • فقد تعرضت منذ القرون الاولى من تاريخها للغزوات الجرمانية المتتالية ، وكانت تصدها ببطولـة خارقة • وانه لمن العسير جدا ان نوجز في هذا المقـال تاريخ الدولة البولونية الحافل بالبطولات وبالاحـداث الجسام • وغني عن القول بأن بولونيا عرفت خـلال تاريخها حقبا طويلة من المجد والعـزة والازدهار • وبلغت أوج عزها وسؤددها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر • فقد اتحدت بولونيا وليتوانيا وشكلتا دولة بلغت مساحتها مليون كم٢ في واعتبرتا من اكبـر وأقوى دول أوروبا • وتوج ملوك من السلالة الملكية البولونية على هنغاريا وبوهيميا • وفي تلك الفترة مـن تاريخها المجيد سطرت بولونيا صفحات خالدات في سجل البطولة والنضال • فقد قاومت أقوى دولة عسكرية في ذلك الوقت ، وأعني الدولة العثمانية ، وصمدت امام جحافلها الجرارة ، وحالفها النصر في حروبها الطويلة التي دامت زهاءقرنين • ولكن في القـرن الثامن عشر قسمت بولونيا بـين بروسيا والنمسا وروسـيا ، فهب الشعب البولوني بأسره يدافع عن وحدة بلاده ويناضل في سبيل السيادة والاستقلال ، واندلعت الثورات الوطنية ، وقامت الانتفاضات البطولية المتتالية في السنوات ١٧٩٤ و ١٨٠٦ و ١٨٣٠/١٨٣٢ و ١٨٤٨ و ١٨٦٣/١٨٦٤ و ١٩٠٥/١٩٠٧ • وبعد الحرب العالميـة الاولى ، خطت بولونيا خطوات سريعة في بناء استقلالها ، الا أن الحرب العالمية الثانية والاحتلال النازي قضت على الكيان البولوني ودكت معالمالحضارة والرقي في بولونيا وتركتها أثرا بعد عين • وفقدت بولونيا في الحرب زهاء ٦ ملايين مـن أبنائها ، كما قدرت الخسائر التي تكبدتها بـ ٥١ مليار دولار •

لقد خلفت العصور المختلفـة والحقت المتعـاقبة التي عرفتها بولونيا آثارا رائعة ، من ثقاعية وعمرانيـة

وفنية ، كتلك التي تزخر بها العاصمة الحالية فارشافا ، والعاصمة القديمة كراكوف . وشهدت تلك العصور انجازات علمية عظيمة ، وروائع فنله وأدبية وموسيقية عالمية . وبذلك تكون بولونيا قد ساهمت بقسط وافر في تقدم الحضارة الانسانية على مر الاجيال . وكثيرون هم رجالات الفكر والعلم والفن البولونيون الـذين رفعوا اسم بلادهم عاليا وقدموا للانسانية خدمات جلى ، ونذكر منهم على سبيل المثـال : ميكولي كوبرنيك الفلـكي البولوني الشهير الذي اكتشف النظام الشمسي ، وماري سكوودوفسكاكوري ، العالمة البولونية اللامعة والذائعة الصيت ، الحائزة على جائزة نوبل ، والتي اكتشـفت الراديوم ، وفريديريك شوبان ، الموسيـقار البولوني العظيم الذي اعتبر انتاجه ملكا ليس لامته فقط بل للعالم أجمع ، وجزءا من التراث الموسيقي العالمي ، وهنريك سينكيفتش ، الكاتب البولوني الحائز على جائزة نوبل لكتابه المعروف « كوو فاديس » ، وآدم متسكيفتش ، شاعر بولونيا الاول ، الذي ترجم الى البولونية بعض قصائد الشاعر العـربي الكبير ، أبو الطيب المتنبي ، وكثيرين غيرهم ...

وما الاحتفالات التي تقام في بولونيا سوى مناسبة لتخليد أمجاد أولئك الابطال الذين ناضلوا للذود عن حرية بلادهم وفي سبيل استقلال بولونيا ، ولاحياء ذكرى عزيزة على الشعب البولوني ، ولتكريم رجالات الفكـر والعلم والفن البولونيين الذين ساهموا في اغناء التراث الحضاري الانساني . وهذه هي بعض التظاهـرات الشعبية التي أقيمت بمناسبة الذكرى الالفية : فقد أعلنت سنة ١٩٦٠ سنة دولية لاشهر موسيقار بولوني ، وهـو فريديرك سوبان ، وفي ١٥ تموز من نفس السنة ، أزيح الستار في « غرونفالد » عن نصب تذكاري شيد تخليدا للذكرى الـ ٥٥٠ للانتصار الرائع الذي احرزه البولونيون على الفرسان التوتونيين ، أولئك الفرسان الذين حاولوا قبلا غزو البلاد العربية فصدهم البطل صلاح الـدين الايوبي . وفي عام ١٩٦٤ ، ستحتفل اقدم جامعـة في بولونيا ، وثاني جامعة في اوروبا الوسطى ، وهي جامعة كراكوف ، بالذكرى الـ ٦٠٠ على تأسيسها . وقـد أنجبت هذه الجامعة على مر العصور العديد من العلماء والمفكرين ، من بولونيين (كوبرنيـك ، كوونتي ، ميخاووفسكي ، الخ) وأجانب .

وعلى هامش تلك الاحتفالات والمهرجانات ، قـرر الشعب البولوني أن يقيم بمناسبة الذكرى الالفية لتاريخه المجيد أروع نصب تذكاري جدير بعصرنا : تشييـد ألف بناء مدرسي . وقد رصدت المبالغ لتمويل هذا المشروع الحضاري الجبار من تبرعات المواطنين ومـن خزينة الدولة . وبهذه المناسبة ايضا قررت الحكومـة المباشرة بتشجير الاراضي البولونية بأسرها ، وذلك بغرس ١٠٠ مليون شجرة .

ان سنوات الذكرى الالفية طابقت مرحلة جديدة من الازدهار والنمو في بولونيا . فبولونيا اليوم ، التي بعثت بعد الحرب العالمية الثانية ضمن حدودها التاريخية ، من كبريات الدول الاوروبية ، يبلغ عدد سكانها ٣٠ مليون نسمة ، اما انتاجها فقد نما نموا مذهلا ، وهـذا جدول لبعض المنتجات :

فحم حجري	١٠٧ ملون طن
فولاذ	٧،٤ ملون طن
اسمنت	٧،٤ مليون طن
سكر	١،٥ مليون طن
منسوجات قطنية	٧٩٠ مليون طن

كما أن لبولونيا علاقات مع ١٣٧ دولة . ويساهم رجال الاقتصاد البولونيون والفنانون والخبراء والاطباء في شتى مجالات التعاون بين مختلف الاقطار ، عاملين بالمبدأ الذي نادى به في القرن الماضي الكاتب البولوني نورفيد حين قال : « ان سعادة وطني ان هي الا جزء مـن سعادة البشرية جمعاء » .

غادة السمان والقصة الانفعالية في «عيناك قدري»

بقلم : عيسى فتوح

* * *

ولعي بأدب المرأة ، وأدب المرأة الشامية بخاصة ولع كبير ، حتى ليكاد يطغى على أي ولع آخر ، بالرغم من تعدد الاهتمامات التي اشارك فيها ، واختلاف ألوان النشاطات التي ينطلق بها قلمي . ولعل هذا الولع ، وهذا الاهتمام نفسهما هما اللذان دفعا بي لرصد حركة الادب النسوي المعاصر في سوريا ، وتعقت كل ما انتجته أقلام كاتباتنا خلال السنوات العشر الاخيرة ، بيد أنني لم اشهد غزارة في الانتاج ، وطوفانا في القرائح مثلما أشهد اليوم .. فأنا لا أكاد أفتح مجلة أدبية دورية ، أو صحيفة ما حتى يطالعني اسم هنا واسم هناك تذيل به هذه القصيدة أو تلك المقطوعة النثرية ، أو هاتيك القصة أو الاقصوصة ... ولقد تأفف البعض وامتعض ليس للغزارة فحسب ، بل لهذا التعجل في النشر بغية كسب الشهرة السريعة ولو بطرق ملتوية يعرفها أكثر من يختبئون وراء قبضة الاقلام الطالعة !.. ولكن لا هم فالزمن وحده كفيل برفع من هي جديرة بالبقاء ، وحط من هي جديرة بغيره .

صحيح أن التطبيل والتزمير قد يلفتان نظر غير الواثق ، ويخلقان الاثارة في النفس ، غير ان الاثارة الهابطة من فوق ، لا يدعمها ايمان عميق ، ولا شعور داخلي سرعان ما تزول كسحابة صيف ... فلنترك اذن أساليب الدعاوات الرخيصة ، نفسح المجال أمام القارىء كي يعرف ماذا يختار ... ماذا يهمل وماذا يأخذ ... وعند ذلك نراه يستفيق من وهمه الخادع ، وينتقي الاجود والاحسن من غير دليل ... ولو كان في بلدنا نقاد منصفون ، موضوعيون ، نقاد يحملون مبضع النطاسي لامدية الجراح لاعتمد القاريء عليهم فيما ينتقي من كتب لرحلته الثقافية الطويلة .

. . .

في خريف عام ١٩٥٦ تعرفت بغادة السمان ، وكنا طالبي علم في صف الثقافة العامة بالجامعة ، نتلقى هذا الخليط المتنافر من الدروس تمهيدا للاختصاص ... كانت غادة عامذاك تكتب بصمت وتخف وخجل محاولات شعرية تطلعني عليها ، وهي تأبى أن تنشرها ... كما كنت اطلعها على ما اكتب ... وراحت الاعوام تنطوي ، ومحاولات غادة تزداد نجحا وعمقا ، عندما شاءت أن تدرس الادب الانكليزي ... فاذا بالمحاولات تنطلق قصصا في قالب شعر ، يقرؤها الناس فيعجبون ويدهشون ... يعجبون بشيء اسمه حساسية ورهافة ، ويدهشون بأناقة اللفظ وبراعة الصورة ، وعمق التحليل .

لعل أبرز ما يميز غادة عن باقي الاديبات انهـا كاتبة « انفعالية » تسكب عصارة قلبها في جميع ما تكتب دون تكلف أو تعمل ... كل ما فيها ينبض بالحرارة ، ويلهث بالدفء ، كأنها جبلت منهما ، تغريها شفافيـة الكلمة ... فتعيش في سحرها ، ويجذبها الرمز أحيانا فتنقاد اليه متحاشية غموضه ... ما أجمل التشابيـه ترشها هنا وهناك مساكب ورد وبنفسج ... فخصرفتاتها النحيل كطوق الياسمين ... وهي تعاتبه كعصفـور فاجأه الربيع ... وعينا عماد تجوسان وجهها كعاصفـة عطر مثيرة ... والارقام ترقص في الصفحات كديدان مرعبة .

انها فنانة في سوق التشابيه الناعمة عرضا ، ومن غير اسراف ، تشابيه ليست الا من قبيل الملح في الطعام .. غرضها منهـا أن تريك مدى الـذوق في توزيعها ، ومدى اللطف في جمالها ، والروعة في دقتها.

خذ قصة « عيناك قدري » ـ التي سمت باسمها الكتاب ـ ترى أن محور القصة هو عينا عمـاد ، لا تفتأ ترجع الى ذكر تلاشيها ازاءها كلما شطت ... حتى لكأنهما لازمة شعرية ، ان صح لنا أن ندخـل اللازمة في القصة ... عينان استحالتا الى كابوس حلم تقريبا يظل يلح ويلح .. كلما حاولت أن تغيب منه برز أمامها منتصبا كالمارد ..

لقو ذكرتني هاتان العينان بغراب الشاعر الاميركي ادغار ألن بو ... كان كلما اراد ان يفلت منه عاد اليه باصرار وتحد وعناد صائحا : هيهات ! ...

وكان يقصد بو بالغراب محبوبته (لينور) التي فجع بها ، فامتزج شبحها بدمه ، وراح يعذبه بمرارة ... وهكذا عينا عماد « تراصدانها ، تلاحقانها ، تثيران حنينها الى رائحة شبابه ... عيناه تطلان من كـل شيء ... من الجدران حولها ... من وجوه العابرين، من اصابع يدها التي تحاول أن تمسح بها النار عـن جبينها ، من معطفها حول رقبتها ... عيناه حارتـان عاتبتان ممزقتان ... عيناه بكل ما فيهما من حنان وثقة واحلام . عيناه تطلان من كل شيء مجنونتين قاسيتين ، تراصدانها كقدر ، لا تستطيع ان تهرب من عتابهمـا اليائس » ثم تبلغ غادة ذروة التمرد والشموخ عندمـا تجأر « يا عيناك ... يا آفـاق الرعب ... الى أين أهرب ؟... »

صرخة مفجعة يرسلها اليائس عندمـا لا يرى مهربا ... تزلزل آفاق الدنيا ، صرخة الميت في هـوى العينين النفاذتين ... غير انهـا تعود لتستلم وتلقي السلاح اذ قهرها طغيانها ... وتتسرب في جـدول شرقيتها المعروف ـ أن ترتمي بأحضان القضاء والقدر فتقول بحرقة المنكسر : « عيناك قدري ... لا أستطيع أن أهرب منهما ، وأنا أرسمهما في كل مكان ، وأرى الاشياء خلالهما ... » .

لله در هاتين العينين ما كان أغناهما ... وما كان أندى كفيهما على الادب ... منهما انطلقت غادة تكتب ، من قرارتهما نبعت غادة الاديبة ... فرحم الله جرير اذ قال :

ان العيون التي في طرفها حور
قتلتنـا ثم لم يحـيـن قتلانا

لم تقتل غادة بالعيون كما قتل جرير ، بل لملمت أشلاءها ، وراحت ترسم تجربتها على الورق قصة تلو قصة ، وخاطرة تلو خاطرة ... لم تتحطم ، ولم ترسل حزنها في كل مكان وجراحها ! بل راحت تزف للألم قصصا لا أعظم ولا أخلد .

مرة ... مرتين ... ثلاث مرات ... عشـر مرات تضيع غادة في متاهـات العينين الخضراوين .. ترحل معهما في غيبوبة شعرية لا واعية ثم تستيقـظ فجأة لترى أمامها حروف الارقام في صفحات المصنف ترقص كديدان مرعبة !.

ثمة شطحات أمومية تلفحها بين حين وحين ، فتصور الام كأبدع ما تصور ... تغوص في أعماقها ...

حتى تستحيل الحروف رياشا تحمل اللون والظل ، وتعين المسافات ... كانت كلماتها - وهي تحلم بنفسها - أما مقبلة - تضع أمامي لوحة الامومة التي تعد أروع وأجل ما أنتجه بيكاسو ... هنا القدرة ... هنا الموهبة ... هنا الفذاذة ... أن يستطيع الكاتب رسم اللوحات بالحروف مستغنيا عن الارياش والطلاءات !

كأني بغادة تؤمن بالايحاء ... بضربات الريشة الورق رسم صورة ... لوحة صغيرة ... كبيرة ، ومقدرته ... تقرأ القصة من قصصها فتحس بالصور تتفجر أمام ناظريك تفجيرا ... كيفما لامس قلمها الخفيفة التي تنفذ الى أعماق الانسان ... بالكلمات المشحونة التي يأخذ منها كل انسان حسب حساسيته لا تؤطرها ، وانما تترك أطرافها حرة ، لتشر لك أنت في وضع الاطار ، فقد تريده أحمر ، أو أصفر ، أو أخضر ... أما هي فحسبها أن جعلتك تشاركها في العمل ، فلا تمل ، ولا تسأم ... تأسرك من أول القصة الى آخرها فلا تميل رأسك يمنة أو يسرة ... تدعوك فتستجيب لتغيب معها في تلك المتاهات الحلوة ، في تلك الرحلات القصصية الناعمة ، رحلات تنسى فيها واقعك ، وتحيا هنيهات مع الكاتبة وبطليها عماد وطلعت، ترصد باهتمام غرابة العينين الخضراوين ... صار يهمك جدا أن تعرف أين ستنتهي قصة السيطرة - سيطرة العينين وكيف ؟ انها تخلق عندك فضولا كبيرا ... شوقا جارفا لتعرف نهاية سحر العينين وطغيانهما النزق الجبار القاهر .. هل ستحطمان طلعت ؟ هل ستتركانها أشلاء ممزقة ، أم ستخلفان لها بقية من ذماء ؟.

في فن القصة شيء نسميه « المماطلة » وهي أن يستطيع الكاتب حبس أنفاس قارئه الى النهاية دون أن يسئمه ... يخلق في نفسه مئات الاسئلة : ماذا ؟ ما عسى أن يكون ؟ أي شيء سيحدث ؟ والكاتب يمعن ... يغذ السير ... يماطل ... لا يريد ان يعطي الحل سريعا ... حتى يشعرنا بشيء من (النرفزة) وتوتر الاعصاب ... كلما أوشكت العقدة أن تنحل زادها لفلفة وتعقيدا ، ضيع دروبها ، وموه معالمها ... حتى تصل الى آخر الشوط منهكا ، عندئذ يبوح لك بالسر في شيء من هدوء النفس وبرود الانفاس .

لعل غادة استقت شيئا من هذه الطريقة من الكاتب الاميركي هنري جيمس ، فهو في قصته (صورة امرأة) يحبس أنفاس قارئه شوقا الى تتبع الشخصية القصصية حتى يجعله يتساءل : ما عسى أن تكون هذه الصورة ؟ وبعد هذا الحبس الطويل ، والتشويق المضني ، والمماطلة الماكرة ، يعود جيمس ليقول : ان الصورة هي صورة اليزابث ارثر ، وان هذه المرأة معقدة بطبيعتها ، وهذا الغموض هو الذي جعل رالف توشيت يترصد غموضها وشذوذها ، فكلما ذكرت الصورة ذكر معها الغموض .

هناك شيء آخر في قصص غادة ، أعني بعض العبارات الرمزية ... وأرى أن القصد من اللجوء اليها هو عدم مصارحة القاريء بالاشياء الصحيحة ، وبخاصة في القصة الاولى « عيناك قدري » ... انها قصة المؤلفة نفسها ، بطلها شخص مر في حياة غادة ، ولذلك رأت أن تلفلف شخصيته بضباب التلميح والرمز كما فعلت كوليت خوري بـ « زياد » بطل « أيام معه » .

ومهما يكن من أمر فعماد بطل « عيناك قدري » يظل غائما ، ضائعا ، غير محدد السمات ، ولا واضح الهوية كزياد ... لقد استطاعت غادة ان تتنكر لصوت ذاتها أكثر من كوليت ... رجعة بالذاكرة الى الوراء ترينا كم هتف النقاد بشخصية زياد وراحوا يعقدون الصلات بينها وبين الشاعر نزار قباني .

قد يعرف الكثيرون من هو بطل غادة في « عيناك قدري » ، ولعل ذلك لا يقتضي منهم كبير جهد ... يهمهم أن يعرفوه ليس لان النقد لا يستوي ما لم

يعرفوا أنه فلان بن فلان ومن المحلة الفلانية ... بل لان لهم مآرب أخرى !.

ليس على كاتب القصة أن يستعير أبطاله من الخيال – ولو جرب ذلك لفشل – لان الابطال لا تعيش في الخيال ، بل في الواقع ، ويشترط بسماتهم أن تكون حقيقية مئة بالمئة ، نراهم ونعيش بينهم كل يوم ... انهم أنا وأنت والآخر ...

لقد اتهم النقاد غادة بأنها تجري وراء الصنعة والتكلف والتعابير المنحوتة ، وانها تلجأ الى العواصف اللفظية والتزويق الكلامي المفتعل ، والا كيف تستطيع أن تعطي مثل هذه التعابير التي لا ينكر جمالها ؟ وقالوا عن اسلوبها انه « جبراني » وانشائي ... وظنوا – وبعض الظن اثم – ان محاولاتها في القصة ستبقى مجرد محاولات ما لم تتخل عن ذلك كله ... ولكن لعمري متى كانت القصة تقارير ورصف حكايات بألفاظ باهتة ليس غير ؟ هاكم كرم ملحم كرم ، وطه حسين ، ومخائيل نعيمه ، ألا يطعمون القصة باللفظة الانيقة والصورة الملونة بين حين وحين ؟!

ان الاسلوب المغسول الذي يستعمله بعض كتاب القصة عندنا لا نغالي اذا قلنا انه اسلوب صحافي يعتمد على السرد الاعجف والرواية الهزيلة ... يلتقطون المشاهد ويقررونها في قصصهم كما يلتقطها المصور الفوتوغرافي عينا بعين ... لا حرارة ... لا زخم في الالفاظ والعبارات ... لا أغوار نفسية ، ولا أبعاد وجدانية تختبيء وراءهما ... الكلمات لا توحي بأبعد من مدلول حروفها ، ولا تحمل شحنات انفعالية زاخرة ، قادرة على هز القاريء واشراكه فيما يقرأ ...

قصص هؤلاء واضحة صريحة ، تقرؤها من أولها الى آخرها فلا تحرك شيئا في كهوف وجدانك ، ولاتترك أثرا او انطباعا عميقا يذكرك بها بعد ان تطبق الكتاب ، وبقول آخر انها لا تقوى على الديمومة .

من هنا قفزت غادة بقصصها الى القمة ، من هذه الزاوية ، فشقت دربها بين عمالقة القصة في العالم العربي بهذا الاسلوب الابتكاري الفريد ... انه نسيج وحده ، لم نألفه عند كاتبة من قبل ، الاسلوب الذي يعتمد على تفجير الصور والمماطلة والتشويق والاثارة المحرقة اللطيفة ... تصف انفعالات أبطالها وحركاتهم المتعاقبة برشاقة العازف الماهر ... تغمس الفاظها بألوان الغروب حينا ، وبألوان قوس قزح حينا آخر ، وبألوان الطيف حينا ثالثا .

ألفاظ مضمخة يأخذك ترفها ، وتستهويك أناقتها دون أن تحس في طياتها فتر الشهوة ، وعربدة الجنس... ان غادة كاتبة من نوع فرويدي ، سيطعم أدبنا العربي بأعماق لا أبعد ولا أوسع ... أبعاد يحلم بها كتابنا ، ولكن ثقافتهم العربية الصرف ، أو اطلاعهم المحدود يقفان دون الوصول اليها .

لقد انصبت في اسلوبها روافد الاساليب العربية والاجنبية ، فأخذت عن لورنس وولف ووايلز وهنري جيمس وديكنز وويلز عمق الافكار وغناها ، ومن القرآن الكريم – الذي تلقته عن أمها طفلة – جمال التركيب وثروة الالفاظ . ثم صهرت ذلك كله في بوتقة كبيرة من التجارب الحياتية ... تجارب فيها شيء من العنف وحدة الصراع ، فخلق منها القاصة التي نقدر ونفتخر .

* * *

الحب والوحل

تأليف الدكتورة انعام مسالمة
عرض وتحليل : اسكندر لوقا

* * *

في زحمة النتاج الادبي الذي يغرق اسواقنا اليوم ، وقد غرق هو نفسه في الشكلية .. والعبثية .. واللاجدوى ، تصدر رواية جديدة ، بكل معنى الكلمة ، للدكتورة الاديبة انعام مسالمة حاملة اسم : الحب والوحل .

تؤلف الرواية في وقتنا هذا ، مرحلة تحول مدروسة ، للأدب الموجه نحو الذات . اذ ، بقدر

ما تبتعد المؤلفة عن التصويرية البحتة في تحديد اطار العالم الخارجي المحيط بشخوص روايتها ، نجدها تنطوي على نفسها لترسم صورة حية للعالم الذي يعيش ويصطخب في الداخل ، وعنه تصدر كل انواع ردود الافعال .

للرواية ، اطار فني عام يتلخص بما يلي :

« .. أحمد ، الراوي الذي يقدم الينا نفسه قائلا منذ البدء : (من اجل ان تتهادى اشرعة الزوارق في البحار ؟ من اجل من تعيد الارض الانبات والازهار ؟ ولمن تنبت الانسانية المثل والقيم وتقدم الضحايا ؟ آه ، ما اتعس الذين لا يعثرون على الجواب أو بعض الجواب ..) يبدأ الرواية برسالة مطولة يرسلها الى احد اصدقاء الدراسة .

في الرسالة نتعرف على جوانب مختلفة من المشكلة التي يحياها أحمد : كان دائما انسانا عابثا . ولكنه حين عاد من اوروبا واحب ايناس طبيبته وجارته القديمة في القرية التي نشأ فيها ، تحول الى شخص آخر . ولم يكن مجرد وقوعه في الحب عاملا وحيدا في هذا التحول . ان امتناع ايناس عن قبوله زوجا لها مع احتفاظها بحبها العميق له ، هو الذي جعله يتخبط في تحوله هذا باحثا عن السر في حياة المرأة التي شغلته ليل نهار .

وايناس نفسها تكشف السر ، فيما بعد ، في رسالة ترسلها الى احمد .

ففي حياة ايناس رجل طردته . رجل بدأ كما تريد ثم ما لبث ان انحدر الى مستوى غريزته ، فحطم بذلك التمثال البديع الذي اقامته له في خيالها . وفي حياة ايناس ما نسميهم بالآخرين . وهم جملة من الاقرباء والاهل . كانوا ينتظرون ان تكون ايناس صبيا يوم ولدت ، ولكنها خيبت آمالهم من دون قصد . وفي هذا تقول متسائلة : (حقا لماذا لم اخلق صبيا ؟ ما هي حكمتك يارب في ذلك وانت لا تخلق شيئا عبثا ؟) . وفي حياة ايناس ، الطبيبة ، حنو بالغ على البؤساء ، تحيي في قلوبهم الامل وتعيد الى وجوههم معالم الصحة ما امكنها ذلك .

هو ذا العطاء المستمر المتواصل الذي تؤمن به . فهل ثم ما يجعلها تفكر بنفسها ؟ بسعادتها ؟ بما يحق لها اخذة من الحياة ؟ لا شيء .

وقبل ان نطوي الصفحات ، تعلم ايناس ان الرجل الذي مر في حياتها قد اصيب بالشلل ، بعد ان تزوج وانجب طفلا . حينئذ تعتبر نفسها مسؤولة عن حالته فتغادر البلاد يؤرقها احساسها بأنها هي التي سببت له ولزوجه ولابنه الالم .. وتبقى في عيني احمد صورة لامرأة ستعود يوما لتلقي برأسها المتعب فوق صدره : لن يمنعني من انتظارها شيء .. ولو ابيض رأسي كله لا بعض شعيراته .. » .

ان حوادث الرواية ليست من النوع الخارق . كما ان المؤلفة لا تعتمد في سرد هذه الحوادث على المفاجآت ، ولا هي تجند لها من وسائل التعبير ما يدهش او يذهل ثم لا يبقى له أثر . ففي الرواية خطط سير واضح .. وبساطة متناهية في التصوير . لا فرق في ذلك بين صورتين احداهما منتزعة من شاطىء بيروت ، حيث تحتل الرواية قسما منه ، والاخرى تحدد معالمها آفاق توتر نفسي يساير حوادث الرواية كافة في المدى الزمني المخصص لها .

والمؤلفة ، في اعتمادها البساطة في التعبير ، لاتتردد في متابعة استجلاء الابعاد المختلفة لشخوص روايتها . يؤكد ذلك طرحها لنماذج معقدة ولكن من دون تهويل علمي صارخ . ان كلا من احمد وايناس وصديقه الطبيب والزوجة التي ترعبها فكرة الحياة مع زوج مصاب بالشلل .. نماذج مرضية . ومع هذا فان رائحة الدواء لا تفوح من حولهم . ثمة ، خلف هؤلاء جميعا ، امكانية ملموسة تقف في مستوى القدرة العاقلة على الرصد النفسي . وهذا ما يجعل رواية « الحب والوحل » رواية منتزعة من صميم الواقع وليست سجلا حافلا في عيادة طبيب .

ان استجلاء القارىء المثقف لما هو كامن خلف السطور ، لا يتم عن طريق العلم المجرد بقدر ما يتم عن طريق الفن . فالفن القصصي اذ « يفيد » من العلم ولا « يصطبغ » به ، يقترب من الواقع الحسي ، وبالتالي

يؤدي دوره الكامل على صعيد العطاء .

ولقد جاءت رواية « الحب والوحل » تطبيقا عمليا لهذه القاعدة التي يصح ان تكون مقياسا لتفوق الكاتب او فشله .

شيء آخر في رواية « الحب والوحل » . انه تطابق الفكر والسلوك .

ان ثمة توازنا ملحوظا في أعماق الشخصيات التي عاشت حوادث الرواية . وان ابرز مثال على ذلك هو ايناس . البطلة الرئيسية في الرواية . فهي منذ ان وعت وجودها اكتشفت انها مجرمة بلا جريمة ارتكبتها. كانت بنتا لأم لا تستطيع ان تقول لزوجها : « اليك يا سيدي ابنا يحمل اسمك ويخلد ذكراك » ، فصممت على أن تكون كالفتى : « ولماذا لا تكون الفتاة كالفتى ؟ » .

هذه البداية الصاخبة كانت عاملا اساسيا في تفوقها العلمي ، في خنق حبها وتكبيل قلبها بذكرى الرجل الاول في حياتها ، في ابتعادها عن وطنها الذي كرهته لانه احاطها دائما بالرعب والاحساس بالهزيمة والتخلف والضعف ، ولانه خلق في اعماقها توترا مخربا لاينتهي.

ان شعور ايناس بأنها تستطيع ان تكون هي نفسها في أي وقت كان المحرك العام لها . ولقد بقيت امينة لما يمليه عليها هذا الشعور طوال الوقت .

وفي شخصية أحمد ، البطل الثاني للرواية ، مافي شخصية ايناس من وضوح .

فهو قبل ان يهتم بايناس كان انسانا عاديا يبحث عن اللذات العابرة ويصطادها بمنتهى البساطة والسهولة. بيد انه حين التقى بها وقف امامها كالحائر امام سور عال لا يقوى على اقتحامه . كانت خيبته مريرة منذ البداية فتسلح بشعوره المبهم : « انها فتاة ذات ماض » !

حدث ذلك حين لم تستجب له . وقبل ان تعترف هي نفسها قائلة بأنها ، حقا ، فتاة ذات ماض . وانها اذ ترفض الزواج منه فلأنها تحبه ولا تريد ان تراه ، ذات يوم ، يتحطم في خيالها كما تحطم التمثال الاول .

غير انه قد حدد موقفه منها . قرر ان ينتظر عودتها الى القرية مهما طال الزمن .

في شخصية ايناس لا نعثر على تناقض . ولكننا نعلم انها تشكل انموذجا لانسان ذي احساس مرهف .. حتى المرض . وكذلك فاننا نجد شخصية احمد متماسكة الا في النقاط التالية :

– في الصفحة ٣٨ قال احمد : انا رجل شرقي ، شرقي رغم كل شيء . رغم هذا الزي الاوربي وذاك العلم الغربي الذي يقبع في ثنايا دماغي .

– وفي الصفحة ٥٨ قال كلاما ما كان ينوي ان يخاطب به ايناس : ابتعدي عني . فأنا واياك على طرفي نقيض . انت شرق بكل ما في الشرق . وانا غرب ، بل آلة الغرب وبكل ما في الآلة ..

ومع هذا نجده يخشى ماضي ايناس (الماضي الذي يجهله حتى تكشف الستار عنه في رسالتها اليه فيما بعد) .. علما بأن رجل الغرب لم يعد يحاسب المرأة اليوم على ماضيها . انه يحيا معها يومه ، ولحظته .

ولعل مرد هذا التخلخل الى قول احمد نفسه في السطور السابقة : لو كنت واثقا من تكامل شخصيتي لما سمحت لنفسي باتهامها ولقبلت بها وعشت معها للحاضر ، للمستقبل .

لقد رافق هذا الاضطراب حياة احمد منذ الصفحات الاولى للرواية ولم يهدأ الا في الصفحات الاخيرة منها. وفي هذا ما يجعل التناقض في قوله تناقض عريضا يغلب عليه السهو .

الآخرون في الرواية : الأم . الطبيب الذي اصيب بالشلل . زوجة الطبيب . اختها هيفاء . صديق الزاوي . اخت الصديق .. وجوه عابرة لا تتطلب التوقف عندها وبينها من هو واقف في الظل او غير منظور . وقد كان هؤلاء جميعا مجرد ركائز فنية في يد المؤلفة ان لم تكن اساسية لاتمام عملها فتوفرها لا يقلل من اهمية هذا العمل على اية حال .

ان رواية « الحب والوحل » تتطلب المزيد من الدراسة ، لان الشكل فيها يؤلف اطار الاحداث النفسية ، ولان هذه الاحداث نفسها تؤلف اطار انسان هذا الشرق الذي اسميه بلا تردد : مجموعة رواسب متحجرة .

القطار الابيض

قصة بقلم يوسف الحاج

المقهى فارغ تماما والظلال المسائيـة تحبو الى الاسفل •• الى الاعماق التي ماتت فيها نوسات الضيـاء الفجري • وضع أمامه الجريدة ، وأطلق آهة صفـراء فارغة لكثرة ما استنزفت ، وزرع في زاوية فمه الجاف لفافة علّه يشغل نفسه بتدخينها • لقد تعب من عمليـة « التعرية » التي كان يمارسـها من وراء الزجـاج الدبق •• وراح يفكر : « قطيع الساعة الرابعة •• القطيع الاجوف ؛ شالات زرقاء ، صفراء ، تلك الابتسامة التي انفجرت بغضب أنثوي • مراقب للعرض • نظرات ثاقبة للظهر •• أولئك هم التافهون ! لماذا أفكر ؟ لماذا أكره هذا الرجل الجالس أمامي ؟ لا بد ان له طريقة غريبة في ازدراد قطع الحلوى •• » • وأحس في أعماقه شيئا يتدمر • قرأ بشكل خاطف : حضانة روض الاطفال • ركب القطار الابيض ؛ في الدرجة الثالثة •• اجتاز القطار الجسر الاول ثم أخذ يهبط المنحـدر بسرعة مخترقا البيت الكبير • لقـد تركه يحترق في العراء •• في غربة الاحتراق • كان القطار يترجرج مغلفا بالغبار المسائي ، والمحطة لما تزل بعيدة ، نائيـة ، وهو لن يصل اليها مهما طال السفر ؛ لانه كان يتخاذل في منتصف الطريق •• لانه لم يعود نفسه أن يكون أداة • كان أداة وفكرا ، وماتت الاداة ذات يوم وبقي الفكر العنيد : هذه النزعة الفرديـة ، وهذه السويداء المحمومة ، وهذا الاصرار على أن يعرف شيئا ما •••

منذ ساعات كان يعيش مع أبطال « دروب الحرية » وهم الآن ينـامون في جوف الجريدة لا يتحـركون ولا يشعرون بمرارة الهزيمة •• لكنه يحس بثقلهـم لانهم انسانيون • تثاءب بفتور واضح ، وتذكر ان هذه الامسية هي أمسية « الميلاد » • ثمة رجل يظلع تحت جذع صنوبرة ضخم •• وضحك من نفسه طويلا •

في الصباح نهض مبكرا ، وبينما كان يربط عقدة رقبته تذكر أن هذا اليوم هو يوم عطلة ، فنضا عنـه ملابسه وعاد الى الفراش الدافىء •• وعندما استيقظ ثانية كانت الشمس في الظهيرة •• القطـار الابيض يمضي ؛ لقد ركب آخرون فيه ، وهو الآن خـارج القطار •• على الرصيف الرمادي الملطخ بالسواد •• في داخل المقهى : في « داخله » هو •• في صميم التعب الروحي المطلق ، خلف النداءات الهائلة للامل • وعوت صفارة الحريق في الخارج ، وحدثت جلبة في الشارع ، لكنه لم يتحرك من مكانه !

تساءل : هل الحرية في الوجه الآخر للارهاب••؟ ترى متى يستيقظ القطيع •• ؟ قطيع ••! هذا أقـل مما يستحقونه • وماء وجه هيولي في الزاوية ، وتمطت الجدر الانسانية وارتعشت أمداء التساؤل ، فـارتسمت على وجه الظلال المسائية أطياف معركة غامضة • كان الصمت يعذبه طوال النهار • وتوالت لافتات الفشـل السوداء تزحم الافق بألف شعور من الكراهية والحقد • وحول المنضدة كان نسيج ثقيل من السأم ينمو ويشعره بأنه تافه ككل شيء حوله •• وهذه اللوحات المعلقـة على الجـدران لا تحمل أي معنى • وطافت كلمـة « العبث » على لسانه الجاف • في تلك اللحظة هومت غمامة في أجواء المقهى ، وارتمى معطف نادي أنيق على الكرسي المجاور ، وأحس أنه بحاجة الى نوع من التركيز الذهني ليكسب المعركة •

ـ يقولون انك يساري ••

تطلع الى وجهها الكئيب أكثر مما ينبغي ، وبينما هو يراقب حركة يدها وهي تعبث بالخاتم الذهبي الراقص في احدى أصابع يدها اليمنى وقال :

ـ لا . لست يساريا .. ولا أستطيع أن أكون يساريا على الاطلاق . انني أنتقد كثيرا ، ومن ينتقد لا يصلح لان يكون أداة طيعة .. لا يسمح لنفسه أن يكون درجة في السلم التي يتسلقها الفاترون .. انني انسان لا منتم ..!

أشعل لفافة ثم غرز ناظريه في وجهها التعب ، وراح يقرأ أعاميقها وتلك الانعكاسات غير الواضحة . ولاحظت أن يده ترتجف ففاجأته بقسوة :

ـ انك انسان جاد . لك وجه صارم حاد ونظرة مرعبة ، وأظن أني لا أستطيع الاستمرار في جو معاناتك . لماذا لا تمرح كالآخرين ؟

ـ ان قضية الوجود والاستمرار في العيش أشياء مرعبة أنساب في تيارها دون وعي مني حتى انقلب اللاوعي الى وعي ، وأنا لا أدرك نوعية الخطأ الذي ارتكبه بحق نفسي . المشكلة أن لنا حياة واحدة فقط ، وانني متأرجح بين الرفض والقبول .

ـ اذن كنت تفتش عن مهرب حينما عثرت علي ، فهل تسمي هذا حلا ..؟

ـ ربما يكون حلا ، أو لا شيء . أما في البدء فهو للتخلص من الضياع .. وسيلة للتخلص .. سبب تتوقف عليه نتيجة .. انني أحيانا أشعر بحاجتي الى آخرين لاتأكد من ممارسة حريتي . أستطيع أن أسمي ذلك الشروع في الحل .

كان يرشح عرقا زيتيا . أزاح نظارته السوداء وأخرج منديلا وأخذ يدلك به جبينه وكل أجزاء وجهه ، ورأى أن المقهى مضيء أكثر مما ينبغي فأعاد نظارته وشعر بالراحة الخفيفة ، وقال في نفسه : « انني حر في أن أقول الحقيقة . لقد اقتربنا من النهاية .. سوف لن نستمر . الساعات القادمة ستحدد ذلك .. الزمن .. الزمن !. »

وشالت به الذكرى الى تلك الليلة التي قضاها وحيدا في غرفة غريبة .. وحيدا كشجرة السرو السامقة يتخللها ضوء باهت لقمر غريب . كان ذلك في بدء معرفته لها ، وأدرك أنه قد تفكك في لحظات تلك التجربة وبدأت جذوره تذبل .. لا لم تعد له جذور ! كانت الأبخرة الدخانية تتصاعد من فنجاني القهوة اللذين وضعهما النادل للتو على المنضدة . الثلج يدوم في سماء كانون ، نفس الثلج الذي تساقط منذ ثلاث سنوات .. لقد كان ثلجا بلاجنازة ! بلاهتافات معادية للديكتاتورية ؛ منذ ذلك اليوم حزنت السماء الخيرة ولم يهطل الثلج ، وهو يستعيد الآن منظر الايدي التي حبكت الاكليل وحملته في مقدمة الجنازة .. كانت الحرية تناضل الوجه الأسود ؛ تحاول تمزيق الارهاب الوحشي .. والجموع تبكي ، والعيون يلهبها الغضب المقدس ! وتساءل : أين أنا الآن من كل هذا ؟ ولم أستعيد هذه الذكريات الاليمة . ومزقته كلمات الاستجواب القاسية . في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . لقد كان ثملا جدا في تلك الليلة .

ـ ساره بأي شيء تفكرين ؟

كانت متمسكة بأهداب الصمت المستقعي ، ولمح هالتين سوداوين تحيطان بعينيها الكامدتين . وأدرك أنها فريسة احساس عنيف بالحزن .

ـ كنت أفكر بأي شيء كنت تفكر ؟

ـ انه الثلج يا ساره .. يشدني الى الدروب الموحلة .. ذات عصر ، عندما شيعت المدينة أحد شبابها المناضل .. أول شعلة للحرية التي ستضيء الدرب الجديد .. لقد نامت المدينة قبل الغروب فور انتهائها من عملية الدفن ، لكن البيوت ظلت ساهرة حتى الفجر تروي لاطفالها الفضوليين قصة مصرع « انسان » كانت البيوت تترقت لحظات الانقضاض الوحشي . ساره ! هل رأيت قدمي ميت ؟ هل رأيت فمه ووجهه ؟ أرأيت كتلا من الورم الازرق تبرز منها نهايات الاعصاب

التي اكتوت بالكهرباء ؟ لا . لم تبق له أية ملامح من الآدميين .. لقد عذبوه باستمرار حتى الموت ، وكان صموده صوتا داويا في عرس الدم ..! كان ذلك أول الغيث يتساقط على الارض الموضوعية للحرية المطلقة !!

★ لم يكد ينتهي من كلامه حتى دخل شخص المقهى وألقى تحية حارة ، واتخذ له مكانا في زاوية . سألت ساره بصوت خفيض :

ـ من يكون الرجل ؟

ـ انه أحد المعتقلين السياسيين الذين قضوا في السجن ثلاثة أعوام .. ان خطأ اليساريين هو وضعهم أنفسهم في خط النار دائما ، ولذلك فهم يدفعون الضريبة قبل غيرهم ؛ انهم وقود القطار الابيض في كل مرحلة سير جديدة .. ان قطارهم يصاب أحيانا بميل ضئيل في زاوية سيره فينحرف عن السكة . انني أمقت منهم من طعنوا الديموقراطية في صميم جوهرها ومنهجها ..!

أراد أن يستمر لكن تثاؤبها المتواصل ثبط حيويته النامية ، وقتل فيه الرغبة الملحة في التحدث . وشعر بموجة عداء لها ، وقال في نفسه : « حبذا لو تغادر المكان الآن ، فلقد سئمت من التطلع الى هذا الوجه الحربائي اللعين .. انها تفتح الموضوع ولا تكترث له على الاطلاق .. » ورغم ذلك سألها بمودة بالغة والساعة تعلن الثامنة :

ـ ساره . هل تشاركينني عشائي الليلة .. انها الثامنة وسوف لن نجد مائدة ان تأخرنا ، فالنادي يزدحم في مثل هذه الليلة : « ليلة الميلاد » !

★ ★ ★

كان يحدق اليها بعينين فاترتين قد اغتال السأم كل الألق فيهما في صمت طويل . موسيقا ناعمة تطفح بكل السلام البشري ، تغزو أعاميقه المتجلدة ، وهمس جرسي يؤكد له ان العالم ليس كله شر .. أما ليلة الميلاد فهي مثالية الآن . كأس مترعة بالنبيذ وانسانة بجانبه ، وهذه الموسيقا الغامرة بالفرح ...

وتتالت على شريط ذاكرته المريضة صور أمسيات الميلاد الماضية ، بفقرها وصقيعها .. بسرحاتها الطويلة في الشوارع القفراء المطفأة العيون .. بتلك الرحلات المجنونة البائسة .. قال في نفسه : « لماذا لا أرضى بكل هذا الآن ؟! » ورفع الكأس الى شفتيه ولم يدعها تغادر حتى أفرغ كل ما فيها .. كان بحاجة الى الدفء الداخلي لينطلق .

ـ ويل لكم يا حفدة شوبنهاور .. انكم لا تنفكون عن الاحساس .. انكم ملوثون بالتوقع المأساوي في كل لحظة ..

وانتبه الى انها تكلمت . فقال لها : عن أي شيء كنت تتحدثين ؟ انني لا أتابعك !؟

ـ كنت أتكلم عن الانسان الذي يعيش حياته وكأنه يقضيها في فنادق مختلفة .. في اللااستقرار .

ـ أريد منك أن تحدثيني عن المعرفة .. عن الارادات التي لا تتحقق .. عن ملايين الاسئلة التي تغزو الفكر المشتت . عن الانسان في جوهر وجوده ولماذا يعيش ؟

فردت بسخرية لاذعة نمت عنها حركة التواء فمها المتورد : « أما أنا فأريد منك أن تراقصني وتكف عن التفكير . لم نأت لنتناقش بينما الجميع يرقصون ! »

قادها من يدها الناعمة ، واختلط بالراقصين في بحر من العطر والنغم ، وتداوخ مع اللحن الايقاعي الجميل لحظات جميلة مليئة بشيء يسمونه السعادة ! وعاش في سعادة طفيفة نصف ساعة من الزمن الطويل ..

تنهد في أعماقه لدن سماعه « ليليات » شوبان تنثال من أوتار البيانو الكبير ، واشعل لفافة ، وصب لنفسه كأسا آخر ، ولاحظ أنها لم تكمل شرب كأسها الاول ، فرفع الكأس وتطلع اليها وقال : نخب ليلة الميلاد .. نخب الصفاء الانساني الذي يحبو الآن على

باب المغارة ! ورن في الركن الهادىء صوت الكأسين المتعانقين .. وتماوجت أصداء الخير والحق والجمال..

وساد صمت قصير :

كل هذه العطور والاضواء والموسيقا .. هذه الاجساد السابحة في بحر الهوى الآني ، لم تكن تثيره لانه كان على وشك الانفصال ؛ لحظات وتنشر قلوع الخدر . الدفء يدغدغ قدميه . شعر بضيق من حذائه ، وأحس أن وجهه يطفح بالدم الحار . فكر بالمدينة التي تنام وراء ظهره .. بشجرات الميلاد القليلة. ألوف من الاطفال لا يعرفون ما هي الشجرة . وألح على فكرة السعادة النسبية . كيف تغزو البيوت ، وكيف تندحر على أعتاب البيوت الاخرى ، وكم هي زائفة الآن رغم كل الاطر التي توفرت لساعة ولادتها ..

كانت تود أن تتكلم ، لكن حركة يده أوقفتها ، وانفجر سؤاله المباشر : هل أنت سعيدة ؟ لم تكن تدرك مدى العمق الكامن وراء سؤاله .. كانت تقف على السطح ، فقالت جادة :

ـ انني سعيدة لانني أردت أن أكون سعيدة منذ بداية الليلة ؛ أما أنت فلم تكن . لقد كانت ترصده دون كلل . لم تنفك لحظة عن تحليله لتتوصل الى أسس تفكيره : « طوباي . أرضي . معقد أكثر مما ينبغي . الخيط الذي سيوصلني الى التغلغل نحو أعماقه لم ينغزل بعد .. لن أتخلى عنه . انني مشدودة اليه بألف خيط من الفولاذ . عنيد لا يسلم بسهولة . لديه السلاح الذي لا يقاوم . الصدق . انه يعرف ما يقول .. لكنه ضائع .. يدوخ مع اللاجدوى . »

أشعل لفافة وتطلع الى عينيها اللتين تعكسان نوعا من السعادة العابرة ، ولمس الرضى الكامل ، وتمنى لو يستطيع أن يحدثها عن طفولته .. عن اشياء تجهلها ولكنه خشي ان يسئمها ويقتلعها من جذورها ليلقي بها في جحيم صراعه .. في جوف الخزان الكبير ..

في الهواء البارد .. تحت السماء الغائمة التي تغيب وراءها ملايين النجوم كان يسير ممسكا بيدها الانيقة الطرية . يتنسم عبير شعرها الفاحم . يتحسس بخده نعومة معطفها . وأراد أن يشعر بحريته في توجيه أي سؤال : « ساره . ماذا تؤكدين لي في هذه اللحظة؟» ومالت عليه .. كانت تود لو تحضنه تحت السماء العارية .. أن تمنحه كل انسانيتها دفعة واحدة .. أن تؤكد له ان العالم ليس كله شر .. وتمتمت : « انني أؤكد لك انني أحبك .. » وفي العراء برعمة قبلة نبيذية طويلة ، وانطبعت على الثلج الفجري آثار أقدام متقابلة . وكانت الاجراس تقرع ...

* * *

السيارة تنطلق فوق الدرب الابيض : ساعات من الحياة تتحول الى شبه ذكريات . الحياة تمضي ، لا فرق أن نكون في صميمها أو على الجانب الآخر منها . وتمنى أن تستمر هذه اللحظات الى ما لا نهاية.. أن يغرق فيها حتى الرأس . لم يكن يرفض الحياة . ولم يكن يحبها ! طوف عائم . سنة من العمر تنقضي . مسافة من الحياة تبتلعها الهاوية .. صباح جديد يولد بين الثلوج ؛ انه يخاف الصباح الوليد : أي شيء تجلبه لنا الصباحات الجديدة ؟ . هذا الجسد المنهد على كتفه . أصداء ليليات شوبان تدغدغ رأسه الخدر . انسياب فوق السطوح اللزجة . ثلوج بيضاء تغمر المقابر المكشوفة . هنا يرقد أبطال مسرحيات قديمة .. مسرحيات لم تزل تمثل ببلاهة .. ثمة كلب يرتجف من البرد . وتوقفت السيارة أمام الباب الاسود . كان الامل الكبير يصعد الدرج ببطء . أخرج آخر لفافة من العلبة ، وتابع طريقه بدون سيارة الى البيت وسط عاصفة من الثلج المدوم . لقد افلتت منه تلك اللحظات التي يود لو تشبث بها الى ما لا نهاية ، ولم يبق له الا نفسه ، وهذه الثلوج التي يحبها ...

الفلاح المجهول

للكاتب البلغاري : يوردان يوفكوف
نقلها : ل.د

كانت الخمارة زاخرة بالفلاحين ، كما يحدث عادة في كل عيد . ومن خلال النوافذ ، كان يبدو بعض من تأخر منهم .

كان الفلاحون يسيرون بخطوات بطيئة ، ثقيلة ، كأن المتاعب تكاثفت الآن عليهم ، اذ انصرفوا عن الاعمال . كانوا جميعا يرتدون قمصانا نظيفة ، عريضة الاكمام البيضاء ، فيتوقفون ، ويجيلون انظارهم هنا وهناك . وكيف لا تتباطأ أبصارهم ؟ لقد نبت العشب حتى على الحجارة . فما أبهى الخضرة في البرية !

وكانوا ، وهم جالسون داخل الخمارة ، يرون أمام أعينهم دوائر خضراء تتراقص .

كان بعض الفلاحين ، يحيون وهم عند الباب ، دون ان يعجلوا في الجلوس ، لان يوفي كان في وسط الخمارة يقول :

ـ قمت بجولة : مضيت الى ناحية « **ميميرليكا** » وعلى طريق « دوراسي » . والحقيقة ، يا اخوان ، ان جمال الحقول يبهر الابصار ويأسرها . فسنابل الجودار أصبحت أعلى مني . ان مطر الليل قد أمالها قليلا ، الا ان الشمس ستعيدها الى استقامتها .

ثم التفت الى المختار قائلا :

ـ لبتك ترى زرعك الخريفي ايها الباي الكسي ، زرعك في « تشانارلاكا » ما شاء الله ! لا أقول لك سوى هذا .

ـ ولكن لي زرع آخر في الجهة الاخرى ، حيث كنت يا يوفي ، فكيف وجدته ؟

ـ انه جيد أيضا ، يا ميخال . كل الزرع جيد جدا .

فقال ايفان العجوز بدوره :

ـ ما يقوله يوفي صحيح . الحقول جميلة . ولا أحد يستطيع القول انه سيحصد ما زرع ، ولكن ، ان شاء الله ، الغلة هذه السنة ، وفيرة جدا وممتازة . ولا يلزمنا الا السهر على هذا كله . وبهذه المناسبة ، انتبه الى ما أقول لك ، الكسي ، انت المختار ...

كان فلاحون آخرون يتحدثون الى المختار مما دعا ايفان العجوز أن ينتظر برهة .

واستأنف قائلا :

ـ الكسي ، انتبه ، من الواجب أن تدعو موظفيك ، نواطير الحقول ، الى زيادة الحراسة واليقظة . فليس لهم ما يعملون في القرية ، بل عليهم ان يكونوا في الحقول .

ـ ايفان . هذا ما أعرفه كل المعرفة . قلت لهم ، يجب ان تحرس الحقول جيدا ، هذا ما يريده الناس ، والا ، طردتكم . افتحوا عيونكم ! فان فاجأتكم بعض المواشي في احد الحقول ، فما عليكم الا ان تسوقوها وتحبسوها ، فتفرض حالا غرامة على أصحابها .

ـ الكسي ، كلا ، لا غرامة ! بل العصا هي التي يجب أن تقوم بدورها ، أسمعت ، العصا !

فقال ستويان :

ـ ولكن ، يبدو عليك ، يا عم ايفان انك جد شرير ! كان من الاولى بك أن توصي رعيانك بعدم التوغل دائما في الحقول .

ـ من هذا ؟ أنا ؟ رعياني ؟ انتبه لما تقول . رعياني ! أنظر الى نفسك ، أولا ! انت مدين لي بقطعتين

من الذهب ، منذ زمن طويل ، ولم تعدهما لي • يا رأس البغل ! رعياني ! •••

فتدخل المختار قائلا :

ـ كفى ، لا تتخاصما • ستويان ، أنت أصغر منه سنا ، كن أكثر صبرا ! لا تغتظ ، يا عم ايفان • اسمعا ما أقول لكما : انا المختار • فأنا اذا ، الامين ، على القانون ، وأنا أعرف ما أعمل ، ولا أتلقى من أحد دروسا بعد اليوم ، ان قبض على احد في الحقول ، سواء أكان يخصني أو يخصك أو يخصنا ، فهناك غرامة ، دون مراعاة أحد ! فليعرف الجميع هذا !

توقفت المهاترة عند هذا الحد ، اذ لم يكن احد قد ثمل بعد • ما عدا توراتشكو ، قالع الحجارة ، فقد كان أول القادمين ، وكان مخمورا تقريبا • وهو يسكن بيتا قريبا جدا ، على رأس الاكمة • كان في الماضي ، قد حاول أن يكسب قليلا من الارض ، فأخذ يعزق ما حوله ويقلبه بالمر ، وكان يقول : « اني أجاهد ضد الاكمة » ولكنه في الواقع ، عثر هناك على حجارة حسنة وأصبح قالع حجارة • وغدت أكوام الحجارة ، المعدة للبيع تحيط بمنزله دائما • وكانت هذه الاكوام الكبيرة تشكل أسوارا ، بل حصونا • وهذا ما كان يدعو توراشكو الى القول دوما : « أنا لا أهتم بأحد ! أنا أسكن في بور آرثور ! وكان لا يقول هذا الا وهو ثمل ويلفظ : « أناأسكن بور آرتر ! »

ظل توراشكو صامتا • فما دام النقاش قائما ، فهو يصيخ الى الكل بانتباه فائق • انه لا يتفق بالرأي مع أحد ، ولا يعطي الحق لاحد • بل يظل يخمر حسب برنامج معين ما دام أوان كلامه لم يحن بعد • كان اذا يصغي ويكتفي بالقاء نظرات حانقة ، تارة الى هذا وطورا الى ذاك وكأنه يقول : « سأريكم أنا ، لو لم اتمالك نفسي » ثم يضرب الطاولة بغضب ويطلب مزيدا من الخمر •

فتر الحديث العام ، وبدأت أحاديث أخرى • وكان المختار يتحدث عن السياسة في زاوية ، مع بعض اصدقائه •

ـ سافر دراكان ، من جديد الى المدينة • ذهب يرفع شكواه الى الحاكم • ويبدو انه سيطالب بالغاء الانتخابات •

ـ كفى ، لا يدعونه يقدم على ذلك !

ـ لقد جاءت امرأته الى البيت أثناء غيابي ، وقالت: « لا أعرف ما أعمل مع دراكان • كان سيضيع جوابه في الشؤون السياسية • في اثناء نومه ، ينط من سريره صارخا : « استئناف » •

فانفجر الجميع ضاحكين •

ـ وقالت امرأته لامرأتي : ما معنى كلمة « استئناف » ؟

ـ وبأي شيء أجابت امرأتك ؟

ـ أجابت بقولها : « كفى ، كفى ! ليقضي نهاره كله في الخمارة ، بدلا من الانصراف الى الشغل ، وترين من جراء الاستئناف ، انه لن يبقى لديك ما تستأنفين به معيشتك !

فضحكوا من جديد وبصورة أشد • ثم انحنى المختار قليلا ، وأجال بصره فيما حوله وهمس شيئا •

كان ايفان العجوز ، جالسا الى طاولة ، وقد نسي شجاره وراح يقص قائلا :

ـ ميخال ، اخطأت في كلامك على هذا الشكل ، فاليوم عيد عظيم • في مثل هذا النهار كان الملك القديس قسطنطين والملكة هيلانة قد عثا على الصليب ، على هذا الصليب نفسه ، الذي كان المسيح قد رفع عليه • وحين عاد الحاج زلاطي من الاماكن المقدسة ، جلب معه قطعة صغيرة من خشبة هذا الصليب ، ليست أكبر من رأس الدبوس • كنت في ذلك الحين صغيرا وقد رأيتها • انها ناجعة لشفاء جميع الامراض •

ـ يا لها من ثرثرة !

ـ ما هذا يا ميخال ،منذ متى صرت بروتستانيا عريقا ؟

ابتسم ايفان العجوز وأشعل سيجارة ، وضعها

في بز سيجارته المصنوع من الخيزران ٠

دخل الى الخمارة ، ايليا الناطور في الحقول ، وعلى كتفه بندقية عتيقة ٠ انه طويل القامة ، ذو وجه لوحته الشمس ٠ وكان يبدو انه يحمل معه رواء الحقول واخضرارها ٠ ابتسم ايليا ، حين ابصر المختار جالسا ، فخرج من الحانة ورجع يدفع امامه فلاحا مجهولا ٠

قال بصوته الراعد :

ـ سيدي المختار ٠ أمسكت هذا وقد اطلق حصانه في الحقول ٠ عثرت عليه قرب جفون العنب ، في حقل كريستو التتاري ، المزروع شعيرا ٠

سرعان ما انقطعت جميع الاحاديث ٠ وشخصت الابصار كلها الى المجهول : وهو رجل صغير الجسم ، رث الثياب ٠ كانت ملابسه تدل على انه ليس من البقاع المجاورة ٠ ان في عينه نقطة بيضاء ، يبدو بها كأنه مصاب بالحول ٠

فزأر ايفان العجوز :

ـ آه ، أسمعت أيها المختار ! أي شيء كنت أقول لك ، أنا ٠٠٠

وقال كريستو التتاري مستفهما :

ـ قلت انه كان في حقلي المزروع شعيرا ٠ كان في شعيري ، أليس كذلك ؟

وقام ، واستدار حتى الطاولة ، ومع انه كان يبدو هادىء الاعصاب ، فقد وثب فجأة على الفلاح المجهول ٠

ـ من أية ذرية أنت ؟ كيف تسمح لنفسك بالدخول هكذا ، الى حقل غريب ، وتدوس ملك الآخرين ، وتعبث بأتعابهم ؟ من أنت ؟ ما تشتغل ؟ ايها الشقي !

ورفع كريستو التتاري قبضته على المجهول وأمسك بصعوبة عن ضربه ، وقد احمر غضبا ، وبرزت عيناه الزرقاوان من رأسه ، وانتفخت أوداجه ٠٠

فصاح ايفان العجوز :

ـ اضربه ! امعسه !

ودوى صوت المختار قائلا :

ـ انتظر ! هناك قوانين ! كريستو ، عد الى مكانك !

وسأل المجهول :

ـ ماذا كنت تعمل في ذلك الحقل ؟

ـ ليس الامر كذلك ، يا سيدي المختار ، لم ادخل الى الحقل ٠ ان حصاني مريض ٠ وتوقفت على حافة الطريق ، بجانب الحقل تماما وقلت لنفسي : « انتظر ، سأرى ان كان سينصرف الى رعي العشب ، لان الحيوان لا يرعى ان كان مريضا » ٠ فلم يأكل الحيوان شيئا ٠ حتى ولا سنبلة ٠٠٠

فهتف ايليا ، ورمى المجهول بنظرة طائر كاسر :

ـ هو يكذب ، يا سيدي المختار ٠ هو يكذب ، وكان في وسط الحقل ٠

فقال المختار :

ـ العقوبة ، مئة ليفا عقوبة لك ٠ كفى ، ادفع المال بسرعة !

ـ مئة ليفا ! ولكن ، من أين أجيء بها ؟ ٠٠ مئة ليفها ! اني فقير ولا املكها ٠ مئة ليفا !

ـ ايليا ، فتشه ! يجب معرفة كم معه من المال ٠

ولكن ، قبل ان يبدي ايليا أقل حركة ، أخرج المجهول من زناره كيسا عتيقا ازرق اللون مزموم من اعلاه ، برباط ، ادخل حول عنقه ٠ اخذ يفتش فيه ببطء ، وعناء ٠ في هذه البرهة تماما ، ابصر الجميع ، الرقع الكثيرة التي خيطت بها اكمامه ٠ كانت يداه ترتعشان ٠ فأخرج بادىء الامر ، قداحة وهوفانا ، ثم ورقة من فئة عشرين ليفا ، طويت اربع طيات ، وقطع صغيرة من النقد وازرارا ٠

على حين غرة ، حدث ما ليس بالحسبان ٠ لقد قفز توراشكو ودفع الطاولة من أمامه وصاح :

ـ أتريدون أن تتركوا هذا الرجل وشأنه ! من أي جنس أنتم ؟

مما لا ريب فيه ان توراشكو كان مخمورا ٠ فقد تمايل ، وانقض على المجهول ، ووضع يديه على كتفيه ، وضمه اليه ، وانخرط باكيا ٠

ـ أخي ! يا أخي ! ألم يجدوا من يلزمونه بالغرامة المالية سواك ؟

وقبله من خديه وعاد الى مكانه ، ولم ينبث بعدها بنت شفة .

ساد الخمارة صمت رهيب . كان الجميع صامتين، ما عدا ايفان العجوز وحده ، كان يتمتم بين شعر لحيته:

ـ هيه ... ويقبله من كل ما اقترفه .. يهوذا !.

حينئذ قال المختار :

ـ ايليا ، خل سبيله ! نصفح عنك ، هذه المرة ، ولكن اذا عدت الى مثلها مرة أخرى ، فلن نصفح عنك .

ما كاد الفلاح يعيد الكيس الى زناره ، وهو يرجف الآن فرحا ، لا خوفا ، حتى تعالى من الخارج صراخ :

ـ ايه !. لمن هذا الحصان في الخارج ؟ لقد وقع على الارض ، وسيموت ، اجيبوا لمن هذا الحصان ؟

وفي قفزة واحدة ، كان الفلاح خارجا . وخرج الكل خلفه . كان امام الخمارة ، عربة ، شد اليها حصان ، كان قد تمدد على الارض . لقد صدق الرجل في قوله : ان حصانه مريض . فهرع الكل لمساعدته ، أمسك بعضهم برأس الحصان ، والآخرون بقوائمه وغيرهم بذنبه . وتمكنوا اخيرا ، من ايقافه على قوائمه. كان الحصان كصاحبه : هزيلا ، أجرد ، خائرا ، منتصب الشعر . لقد ظل واقفا ، ولكن قوائمه لا تقوى على حمله . وكان يخيل لمن يرى عينيه الباهتتين ، العكرتين، انه أعمى .

كان الفلاحون المتجمعون ، يقدمون . مختلف النصائح وهم يصيحون دفعة واحدة . قال ايفان العجوز ان بطن الحيوان منتفخ ومن المفيد له ان يعطى مسهلا . وأشار آخر بضرورة دلكه ، لانه أصيب ببرد كما يظهر . وجمع كريستو التتاري في الحال قبضة من التبن واخذ يفرك بطن الحيوان وظهره . ظل يفرك حتى تسايل عرقه ولم يعد يحتمل لشدة تعبه .

فقال المختار :

ـ القِ الآن على ظهره شيئا . لا تخف سيستعيد قواه . دعه يمشي ، يجب ان لا يظل جامدا ، دون حراك .

ثم قال المختار مخاطبا ايليا :

ـ اركض الى البيت وهات خبزا وجبنا لهذا الرجل حتى يأكل قليلا .

رجع المختار الى الخمارة يتبعه الفلاحون . وبقي المجهول وحيدا ، خارجا ، يجر حصانه جيئة وذهابا .

عند الظهر ، رجع بعض الفلاحين الى بيوتهم وبقي الآخرون يعاقرون الخمرة . ولم يعد يلتفت احد منهم الى المجهول وهو مثابر على جر حصانه . بيد ان حالة الحيوان لم تتحسن ، وازداد الفلاح هما واكتئابا.

لقد هبط الظلام ، وغدت أوراق الاشجار المثمرة الكثيفة قاتمة ، وتوارت المروج والحقول عن الابصار . وبدت بعض النجوم تتألق ، فوق قمة الاكمة السوداء . وكان الطقس حارا .

لم يعد في وسع الحصان الصغير ، أن يظل واقفا ، فهوى قدام العربة . وبقي الفلاح قربه في الظلام . وبقي الخبز الذي جيء به اليه ، حيث وضع ، لم تمسه يد . انقطعت السابلة في الشارع ، بيد ان الخمارة ما زالت ، مضاءة بالانوار ، يتعالى منها عزف مزمار ووقع رقصة الراتشينتزا . بعد برهة خرج توراشكو ، قالع الحجارة والقى على الفلاح نظرة ، ولكنه لم يره ولم يعرفه . ترنح توراشكو يمينا ويسارا ثم صاح :

ـ لا يهمني أحد ! أنا أسكن في بور آرثر !...

بعد ان اجتاز الشارع ، عاد أدراجه وسلك الطريق المؤدي الى الاكمة .

بقي الفلاح المجهول وحيدا . لم يكن هناك من يساعده ، وان لم يكن في مقدور احد ان يسعفه . جلس القرفصاء قرب حصانه المنهار . ثم قعد وامسك برأس الحصان وأسنده على ركبتيه . وكانت عين محملقة ، مفعمة بالالم ، تنظر اليه ، وقد انعكس على صفحة هذه العين لمعان النجوم .

موكب العلم والحضارة

بقلم ياسر

الاستفادة من دم الاموات

يختزن الانسان في قلبه وعروقه مقدارا من الدم الجوال يتراوح بين ٤ ـ ٦ ليترات تقوم بأود حياته ، من تغذية ودفاع وارواء لخلاياه الحية وغيرها من الوظائف الهامة . فاذا ما توقف القلب وهدأ التنفس واختفت الروح اصبحت هذه الكمية من الدم بدون فائدة ترجى . ولم تفطن الدول الى فكرة الاستفادة من هذه الدماء الا أن معهد (سكيلى فوسكوفسكي) قام بنقل دم الجثث لاكثر من (٢٧٠٠٠) بعد ان تبين ان دم الجثة البشرية غالبا عديم الضرر بالنسبة للعدوى بالامراض والتسممات

اما مميزات نقل الدم من الاموات فهي كما يلي : يجمع الدم بعد تطبيق الفحوص المصلية والمخبرية والجرثومية العارمة عليه ، ثم يتبعها فحص فحص تشريحي مرضي شامل على الجثة للتأكد من عدم انتقال اي عامل مرضي . وهذا الفحص ليتحيل تطبيقه على الذين يقدمون الدماء من الاحياء . كما ان حالة الليفين الموجودة في دم الجثة تلقى ضرورة اضافة المواد الكيمائية المائعة للتختر ، وهذا يقلل نسبة حدوث اي انعكاس ، والميزة الثالثة انه يمكن نقل ليترين الى اربعة ليترات من الجثة بينما لا يمكن نقل مثل هذه الكمية من الاحياء .

جنس الطفل

ان السؤال الازلي عن جنس الطفل قبل ولادته في طريقه الى الحل . فالبيرلوجيون يعتقدون ان جنس الطفل يحدده نوع الحيوان المنوى الذي يخصب البويقة . فاذا كان الحيوان يحمل كروموسومات (س) فان الطفل سيكون ذكرا واذا حمل كروموسامات (ص) فان الطفل انثى اذ انه ليس للبويقة اثر يذكر في تحديد جنس المولود .

وقد توصل الدكتور لاندروم شيتل من جامعة كولومبيا الى طريقة سهلة لتحديد هذا الموضوع . فقد وضع الدكتور على شريحة زجاجية حيوانات منوية وتركها تجف .. ثم اختبرها بمجهر خاص فوجد أن رأس بعض الحيوانات اصبحت مستديرة والبعض الآخر استطال وصار يشبه القارب ولم يعثر على انواع متوسطة قريب التحقيق اكثر بكثير مما يتصوره اكثر الناس حماسا . بين النوعين السابقين .

وقرر الدكتور مشيتل ان الحيوانات المنوية ذات الرؤوس المستديرة تحمل كروموسومات (س) الذكرية في حين ان الحيوانات ذات الرأس المستطيل تحمل كروموسومات (ص) الانثوية .

ومما لا شك فيه ان هذا التميز سيساعد العلماء على تمييز الحيوانات وهي حية ثم فصلها بعد ذلك الى اناث وذكور .

التمجد .. والشفاء

قال الدكتور روليم ميلز الاميركي بأنه يمكن انقاذ ضحايا التجمد بكل سهولة بعد الآن .. واعلن الدكتور ان الطريقة تكون بواسطة مغطس ساخن مياهه دوارة تتراوح بين ٤٠ ـ ٥٠ درجة مئوية ، تنقذ الاطراف المتجمدة .

ويقول الدكتور ميلز أنه قد تمكن بهذه من انقاذ اكثر من ستين ضحية من ضحايا التجمد وينصح الدكتور بالاضافة الى ذلك وضع الكمادات اللازمة الساخنة بعد استعمال المغطس المذكور .

علماء آسيا .. واليابان

اثبت المؤرخ حميدالي كاسوانوف لاول مرة ان علماء

آسيا الوسطى قد عرفوا اليابان منذ القرن الحادي عشر للميلاد اي قبل قرنين من معرفة ماركو بولو بوجود الجزر اليابانية ٠

وقد اثبت ذلك عن طريق ترجمة ودراسة (قاموس اللغة التركية) والخريطة الجغرافية الملحقة به الممثلة لنصف الكرة الارضية والتي حفظها وقدمها محمود قشعر وهو عالم معروف من علماء القرن الحادي عشر والتي استطاع حل طلاسمها المكتوبة باحرف عربية وباللغتين العربية والتركية ٠ وقد جاءت اليابان في هذه الخريطة في شرقها الاقصى مما يتفق والمعلومات الحديثة عن موقعها ٠

مؤتمر طبي في بيروت

يفتتح في الرابع من ايار القادم في الجامعة الاميركية ببيروت مؤتمر دولي للاطباء يستمر يومين كاملين ٠ وتشترك فيه معظم الدول الاميركية والاوروبية وجميع البلدان العربية ويحضره حوالي ٦٠٠ طبيب من مختلف الجنسيات وسيحاضر في المؤتمر حوالي ٤٠ طبيبا يعتبرون من اكبر اساتذة العالم في المجال الطبي وعلى رأسها الطبيب اللبناني بيتر مدور الحائز على جائزة نوبل للطب ٠

وتدور ابحاث المؤتمر حول علم الاعصاب والوراثة والالتهابات وجراحة القلب وجراحة الجهاز الهضمي ومواضيع اخرى عديدة ٠

النساء والتدخين

اعلن احد الباحثين الحكوميين في الولايات المتحدة بعد دراسة قام بها مؤخرا ان النساء اللواتي يدخن بكثرة اثناء الحمل يلدن اطفالا اصغر حجما وذوي صحة سيئة ٠

وقال الدكتور ريتشارد ماسلاند ان البعض سأله عما اذا كان التدخين السبب في ذلك فأجاب ان دراساته اثبتت « ان المرأة المدخنة من المحتمل ان تضع طفلا صغير الحجم لدرجة ان صحته تكون ضعيفة » ٠

قطعة فسيفساء من العهد الروماني

اعلن الدكتور عوني الدجاني مدير الآثار الاردنية العثور على قطعة اثرية من رسوم الفسيسفاء في بلدة مأدب ٠ ووصف الدكتور الدجاني هذه القطعة بأنها تعتبر من ادق ما عثر عليه حتى الان وبأنها تمتاز بصغر حجارة الفسيسفاء المستعملة فيها حتى ان القطعة بكاملها تبدو وكأنها لوحة زيتية ٠

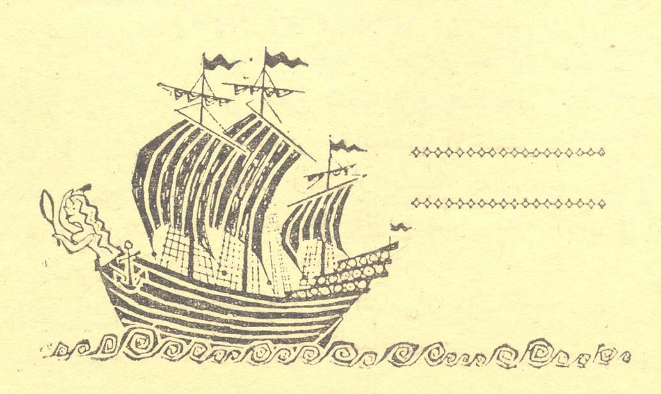
وذكر الدكتون الدجاني ان القطعة تعود في تاريخها الى العهد الروماني وان العمل جار للكشف عن بقيتها ٠

هبوط الانسان فوق الكواكب

اعلن الفلكي الروسي المعروف نيكولاي بارابانشوف ان طيران الانسان نحو مختلف الاجرام السماوية المكونة للمجموعة الشمسية وهبوطه فوقها اصبح

كما اعلن الاكاديمي الاوكراني في مقال نشرته جريدة كومسو فولكا برافدا ان العلماء عاكفون حاليا على دراسة المسائل التي بناء محركات كونية تستطيع نقل الانسان عبر المجالات الكونية نحو النجوم ٠

ويعتقد العالم انه سيتم بناء مراصد مجهزة بآلات فلكية قوية فوق القمر والكواكب ، وان بعض الكواكب الصغيرة مثل النجمات والاقمار التابعة لها ستستخدم كمحطات اثناء الطيران بين الكواكب ٠



النشاط الثقافي

● صدرت في باريس اخيرا مجموعة شعرية جديدة للشاعر الجزائري جان سيناك عنوانها « صياح شعب » وقصائد الديوان كلها تدور حول تجربة الكفاح الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي .

كتب مقدمة المجموعة الفنان مصطفى الاشرف الذي كان سجينا مع بن بللا ورفاقه ثم هرب من السجن أخيرا .

في الديوان قصيدة طويلة بعنوان (امي الجزائر , ...

● العراق : تصدر قريبا وزارة (الاسكان) في العراق مجلتها الشهرية باسم (الاسكان) تحتوي على بحوث اقتصادية واجتماعية ومعالجات لازمة السكن في العراق وسيشرف على تحريرها السيد علاء احمد . مدير التوجيه والنشر بالوزارة .

● .. انتهى الاستاذ اكرم احمد من جمع ديوانه والقصائد التي نشرت له في الصحف والمجلات وسيباشر بطبعه قريبا .

● .. اتم الاستاذان حسن الجواد وعبد الحميد الجواد ترجمة كتاب المؤرخ المعروف (لونكريك) (العراق في نصف قرن) الذي يتحدث فيه عن تاريخ العراق ما بين عامي ١٩٠٠ و ١٩٥٠ . والمؤلف هو صاحب الكتاب المسمى (اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) الذي ترجمه الاستاذ جعفر خياط .

● مصر : دراسات ادبية (لاندريه موروا) يترجمها سمير وهبي الى العربية . تتناول هذه الدراسات اندريه جيد وبول فاليري وبروست .

● لبنان : نشرت جمعية (اصدقاء الكتاب) في بيروت بيانا عن الجوائز الادبية لعام (١٩٦٢) جاء فيه ان الجوائز التي تمنح لمؤلفين لا يشترط ان يكونوا لبنانيين (١) : جائزة مدينة بيروت وقيمتها ٣ آلاف ليرة لبنانية . تمنح لافضل دراسة تعالج ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية العربية اليوم ، الفها مؤلف من الاقطار العربية . ونشرت في لبنان (٢) جائزة (٣ آلاف ليرة تمنح لافضل رواية تاريخية تعالج جانبا من الحياة العربية حتى نهاية العصر الاموي . الفها مؤلف من البلاد العربية ونشرت في بلد عربي ..

● .. طبعة جديدة من مذكرات تشرشل التي ترجمها حماد . طبعت في القاهرة وثمنها اقل من طبعة بيروت بكثير جدا .

● تونس : اصدر معهد الاداب العربية في تونس نشرة تحتوي على الحصاد الثقافي لتونس في خمس سنين بعد الاستقلال في مختلف اوجه نشاط الفكر والثقافة والادب والشعر .

● .. اصدرت مجلة (الفكر) في تونس عددا خاصا بالشعر العربي المعاصر يتضمن دراسات وقصائد متعددة المناهج واغراض .

● سورية : دار الشرق بحلب ستصدر قريبا سلسلة من المسرحيات العالمية وقد صدرت الاولى منها (دون جوان) لموليير وترجمة جورج سالم .

● ... منع من دخول سورية ديوان (الوفاء) مختار من شعر بولس غانم ....

● العربية السعودية : باقة الطائف ـ كتاب صدر حديثا من اختيار الاديب الشاعر ابراهيم العلاف مدير مكتبة الاذاعة السعودية .

● ... مبادىء ومثل ـ كتاب جديد للاستاذ احمد محمد جمال وموضوعاته عامة تتعلق باصلاح الفرد والاسرة .

● ... قدم بعض الادباء السعوديين المعروفين طلبا للسماح لهم باقامة رابطة للادباء . من اهدافها : ايجاد لجنة للتأليف والترجمة والنشر وانشاء قاعة للمحاضرات ومسرح ومكتبة . والعمل على رفع المستوى الثقافي بين الجماهير وتشجيع وانماء الحرية الفكرية .

● ... كتب تصدر حديثا في السعودية (عودة الغريب) ديوان شعر لطاهر مخشري . « من هنا كان الطريق » مجموعة مقالات لاحمد السباعي . « ثقب في رداء الليل » قصة طويلة لابراهيم الناصر ... وسيصدر عن دار الخليج العربي كتاب في البناء القصصي لفليب الراسي .

● اقامت السفارة البلغارية في دمشق حفلة استقبال كبرى بمناسبة قدوم الوفد الثقافي

البلغاري حضرها كبار رجال الدولة والسلك الدبلوماسي ورجال الصحافة .

● **اتفقت صالة الفن الحديث العالمي في دمشق مع مدير صالة سان لوكا في روما الاستاذ بيرا شيفي على تبادل المعارض الفنية بين ايطاليا وسورية ، وستكون اول دفعة من الفنانين السوريين للعرض في روما مؤلفة من الفنان فاتح المدرس والفنان محمود دعدوش والفنان روبير ملكي والفنان اسعد زكاري . وفي المقابل ستصل ايضا الى دمشق في شهر تشرين مجموعة من فناني سان لوكا . منهم الفنان كاركيتي ، نوفولو ، تيبانو ، بيراشيني .**

● الشاعرة هيلانة شمعة تستعد لاصدار مجموعتها الشعرية النثرية الاولى . تنوي الشاعرة طبع المجموعة في بيروت .

● **الزميل الاستاذ عبد الغني العطري انتهى من وضع مخطط كامل لمجلة (الدنيا) . وهو يستعد لاصدارها بأقرب فرصة ، بصورة تضاهي قطعا المجلات اللبنانية والمصرية .**

كما وان الزميل العزيز قد انتهى من جمع واعداد كتاب يقع في مائتي صفحة بمواضيع مختلفة بعنوان : آراء صغيرة في الادب والفن والحياة .

● العبث .. مجموعة قصصية تصدر عن دار الحياة في بيروت للقاص السوري اسكندر لوقا ، تحتوي المجموعة على ٢٣ قصة قصيرة .

● **رزق الصديق الاديب الاستاذ عرفان سلوم ولدا ذكرا جعله الله من ابناء السعادة وأقر به عيون والديه .**

● الشعر والدجل السياسي ... موسوعة ستصدرها قريبا جماعة المحنطين من وزاني الشعر وعلاكي الاوزان ومهرجي الحرف !!

● **« أديبات من سورية » هو الكتاب الذي سيصدره الاستاذ عيسى فتوح خلال الصيف القادم .. عيسى كتب معظم فصوله وما يزال يجري الاتصالات مع الاديبات اللواتي يود الكتابة عنهن لاتمامه .**

● صدر للاديب المهجري انيس شيبوب كتاب « مهد الحق وطريق الحياة » عن مطابع جميل صفدي في سان باولو - البرازيل .

● **تكونت في باريس لجنة من بعض اساتذة السوربون لاعداد برنامج الاحتفالات بمناسبة ذكرى مرور ٢٥٠ سنة على ميلاد الكاتب المفكر الفرنسي العظيم (حان جاك روسو) الذي ولد بجنيف في سويسرا في ٢٨ حزيران ١٧٦٢ .**

● ... ظهر في مدينة شتو تجارت بألمانيا كتاب عن القصص والخرافات الجديدة في بلدان العالم العربي . يعطي للالمان فكرة قصص وخرافات البلاد العربية .

● **... صدر في المانيا كتاب بعنوان « الفن القديم في الاراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات » عالج مؤلفه فيه الفن الشرقي القديم .**

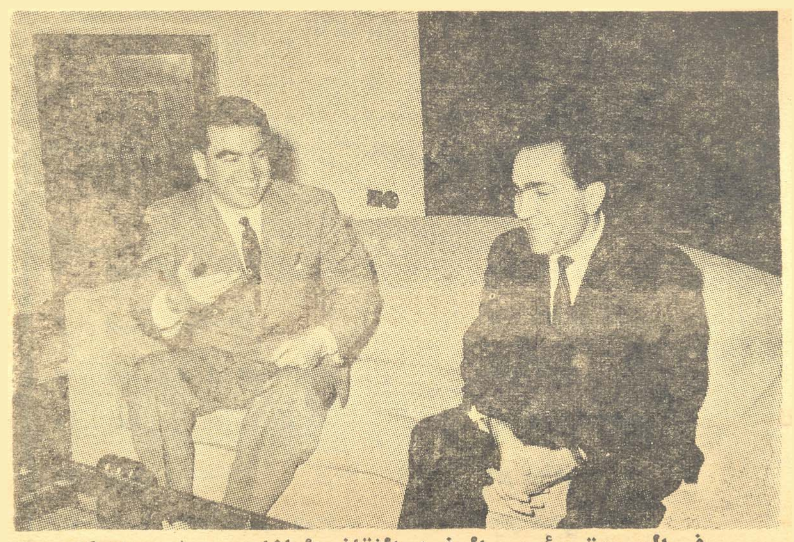
● اشهر من تحلق في روايتها في جو الجريمة بين ادباء العالم الآن هي اجاثا كريستي (٧١ سنة) ... رأت ان تغير اتجاهها الادبي . شركة مترو جولدوين طلبت منها ان تحول احدى روايات تشارلز ديكنز الى السينما .

● **... مجلة الآداب الاجنبية بموسكو تقوم الآن بترجمة ديوان (انشودة الطريق) للشاعر كمال نشأت الى اللغة الروسية . سبق للمستشرق الروسي (شار باتوف) ان ترجم بعض قصائد كمال نشأت الى الروسية .**

● ... في امريكا كاتبة مبتدئة بدأت تلمع . اسمها (هاربرلي ٣٥ سنة) . رغم انها لم تؤلف الا رواية واحدة اصدرتها العام الماضي تحت عنوان « حتى تقتل الطائر المقلد » .... ما زالت روايتها هي الاكثر ذيوعا هناك طوال الشهور الاخيرة . ترجمت الى عشر لغات وستتحول الى فيلم - (هاربر) نالت جائزة بوليتزر . وهي اعظم جائزة امريكية ادبية .

● **... صدر في لندن كتاب عن (سانت بوف) اكبر ناقد فرنسي في القرن الماضي . سانت بوف هو صاحب النظرية المعروفة في دراسة الادب عن طريق ترجمة حياة الشخصية الادبية . مؤلف الكتاب هو ا.ج. اعتبر المؤلف (بوف) واحدا من اعظم عشرة عقول ظهرت في اوربا في القرن الماضي .**

● **... الكاتب الروسي ميخائيل شولوخوف يكتب الآن رواية طويلة باسم . « حاربوا من اجل الوطن » ستصور حياة الناس والجنود اثناء الحرب .**



في الصورة رئيس الوفد الثقافي البلغاري ووزير الاعلام السوري في جلسة ودية ..



لوحة ل : جولينو بولوفيتش

● ... صادرت حكومة جنوب افريقيا رواية . (عالم من الغرباء) للكاتبة (نادين جورديمر) ... « حائزة على جائزة ادبية في لندن » ... موضوع الرواية صداقة بين ابيض وافريقي وهجوم على الطريقة التي يعامل بها الافريقيون في (جوهانسبرج) قائمة الكتاب الممنوعين من دخول جنوب افريقيا . « اميل زولا » . و « تولستوي » و « سارتر »و« برتراندرسل ».

